

390

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

ياسمينة

(وقصص أخرى)

تأليف: إيزابيل إبرهاردت
ترجمة: حسن دواس
مراجعة: د. ليلى عثمان فضل

أغسطس 2012



الفنان: سعود الفرج

لوحة من معرض الفنان الكويتي سعود الفرج

٢٠٠٥



ياسمينة

وقصص أخرى

تـــألـــيـــف: إيزابيل إبرهاردت

تـــرجـــمـــة: حسن دواس

مـــراجـــعـــة: د. ليلى عثمان فضل

• ياسمينة
(وقصص أخرى)

العنوان الأصلي:

Isabelle Eberhardt

Yasmina Et Autres Nouvelles Eberhard

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2012م

إبداعات عالمية - العدد 390

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

الإهداء

إلى الروح التي اعتنقت ليل

هذه الأرض وفجرها

وعشقت خفايا رمال هذه الصحراء

وسحرها

إيزابيل إبرهاردت...

وإلى كل المهتمين بالتراث الأدبي

والرحلي

لهذه الكاتبة المتميزة

والرحالة الفذة.

حسن

قبل أي كلام!

لا شك أن ثمة علاقة خفية، لذيذة وغامضة تتشكل خيوطها الشفيفة تدريجيا بين الكاتب والمترجم في تواتر متموج يشتد حينا ويفتر آخر، وفق استغراق المترجم في عمل الكاتب واستحواذ النص على مشاعره، خصوصا إذا كان العمل المترجم نصا أدبيا إبداعيا، لما يطفح به عادة هذا النوع من النصوص من عصارة فكر الكاتب، وعطر أحاسيسه، مستخلصة من أعماق النفس السحيقة ولب الروح المبدعة، المحلقة في عوالم التخييل المجنح.

وقد حدث لي هذا الانجذاب الآسر وتشكلت هذه الصلة المبهمة مع الأستاذ الشاعر الدكتور عبد الله حمادي وأنا أترجم مجموعته الشعرية «يا امرأة من ورق التوت»، وقبله مع الشاعر الأستاذ يوسف وغليسي وأنا منهمك في ترجمة «تباريح اللحن الأخضر»، لكن الأمر بدا لي عاديا، فالدكتور عبد الله حمادي أستاذي منذ العام ١٩٨٩، ويوسف صديقي منذ سنوات عديدة، وقد جمعتني بهما أروقة الجامعة ومنابر الملتقيات الأدبية، فصلتي بهما قبلية؛ قرأت لهما وسمعتهما وتأثرت بهما قبل ترجمة نصوصهما.

لكن ما حدث لي وأنا عاكف على ترجمة هذه النصوص للكاتبة والرحالة إيزابيل إبرهاردت مختلف تماما. ذلك أن اكتشافي لها ليس بالبعيد، لكن بمجرد قراءتي لكتاباتها المختلفة سواء الإبداعية أو الرحلية وبمجرد اطلاعي على بعض الجوانب من حياتها الأسطورية أحسست بانجذاب غريب ينمو وشغف بقراءة المزيد وترجمة المزيد، إذ أعتقد أن أحسن طريقة لقراءة نص ما هي ترجمته، ولولا انشغالي في هذه الفترة، وحتى كتابة هذه الكلمات بتحضير رسالة الماجستير لأكملت ترجمة بقية قصصها خاصة والتي لا شك أني سأعود إليها لاحقا بحول الله.

وتذكرت ما قاله كثيرون حول جاذبيتها وتأثيرها الساحر في كل من يقترب من عالمها الشائق المبهم.

فهذا محمد رشد؛ الباحث الجامعي المختص في إيزابيل وكتاباتها يعلن في محاضرة ألقاها بمناسبة إحياء ذكرى مئويتها بالمكتبة الوطنية بالجزائر في أكتوبر ٢٠٠٤: «لقد لعبت إيزابيل إبرهاردت دورا مهما، حتى لا أقول أساسيا في اهتدائي واندماجي في هذا البلد».

وهذه الفرنسية إدموند شارل رو رئيس أكاديمية جونكور تقول في حوار لها لجريدة ليبرتي (Liberté)، أجراه معها الطاهر حوشي: «صحيح، عملت لمدة ١٢ سنة على أعمال إيزابيل ولكن شغفي ظل نفسه. كل المواضيع تنتهي يوما ما إلى الملل واللامبالاة؛ غير أن الأمر مختلف بالنسبة إلى إيزابيل. الإعجاب دوما عنيف كما في اليوم الأول».

وذاك المارشال ليوتي الذي قال في كلمة بمناسبة وفاتها: «لقد فهمنا بعضنا البعض، أنا ومحمود المسكين، وسأحتفظ إلى الأبد بذكرى ممتعة لأحاديثنا المسائية، لقد كانت أكثر ما يشدني إلى العالم، كاسرة أشعة. أن تجد أحدا وهو حقيقة ذاته، بعيدا عن كل التعصب، عن كل الأكليشيهات، والذي يمر عبر الحياة منطلقا مثل طائر في الفضاء، يا لها من بهجة!».

أما المخرج الأسترالي يان برينغل (Ian Pringle) الذي أخرج فيلما حول حياة إيزابيل إبرهاردت فيقول: «عندما قرأت نصوصا حول حياة إيزابيل إبرهاردت، للمرة الأولى، هذه عشر سنوات تقريبا، لم أكن منجذبا ومندهلا أمام هذه المرأة التي كانت حياتها قصيرة وغريبة فقط، لكن أحسست بنوع من القرابة معها كذلك».

ويضيف: «لقد كانت كل شيء: مهرجة، قديسة، بطلة، حسية، إعصار أنثوي والذي من عمقه تتدفق الحياة بلا انتهاء. كاتبة، مغامرة، ساذجة؛ ثائرة دوما، مدفوعة بقوى لا تفهمها، قضت حياتها القصيرة وهي تحاول التخلص من الفائض لتواجه الواقع».

إن كتابات إيزابيل إبرهاردت أثارت اهتمام الكثير من الباحثين والدارسين والفنانين الغرب، وعلى سبيل الذكر، فقد ترجم روبرت

بونونو Robert Bononno كتابها «رسـائل ويوميات» تحت عنوان: «سـبع سنوات في حياة امرأة، رسـائل ويوميات» (Seven Years in the Life of a Woman: Isabelle Eberhardt, Letters and Journals) ، وترجمـت شـارون بانغـرت، Sharon Bangert «تحـت ظـلال الإسـلام الدافئـة» (In the Shadow of Islam)، وصدرت في أكتوبر ١٩٩٤ عن أوون بيتر.

وصـدرت ترجمة أخرى بالإنجليزية في العام١٩٧٥ لصاحبها بول باولز Paul Bowles تحت عنوان: « الباحثون عن النسيان وكتابات أخـرى» (The Oblivion Seekers & Other Writings)، كمـا ترجمـت نينـا دي فوغـد Nina De Voogd اليوميـات تحـت عنـوان «الرحالـة - يوميات إزابيل إبرهـاردت» (The Nomad The Diaries of Isabelle Eberhardt) ، كمـا ترجـم ميغال فرونتان Miguel Frontán قصصها إلى الإسبانية.

أما بالفرنسـية فقد صدرت العديـد من الكتب عن إيزابيل، وتمت إعـادة طبـع أعمالها الكاملة وإدموند شـارل رو وحدها أصدرت ثلاثة كتب حول حياتها وأعمالها: شوق إلى الشرق - شباب إيزابيل إبرهاردت ، Désir d'Orient, (La Jeunesse d›Isabelle Eberhardt) ثـم «رحالة كنت»، السـنوات الأفريقية لإيزابيـل إبرهادت Nomade J'étais, Les Années Africaines D'Isabelle Eberhardt ثم «إيزابيل الصحراء» (Isabelle du Désert).

وهنـا أتسـاءل أيـن نحن مـن تراثنا؟ أو لسـنا أحق مـن كل هؤلاء وأولئـك بإيزابيـل وإرثها الأدبـي والتاريخي والرحلـي؟ أين نحن من حب إيزابيل لهذه الأرض وشعبها؟

لقد عشقت إيزابيل ليل الجزائر وفجرها، فغدت لا تتنفس هواء غيـر هوائهـا، ولا تفترش أرضـا غير رمـال صحرائها، عنابـة، باتنة، العلمـة، تلمسـان، الجزائر، الوادي، قمار، بوسـعادة، عين الصفراء... لا بقاع أرحب وأروع من هذه البقاع، مائها، رملها، سـمائها، شمسـها،

كان كل شـيء، فـي عيـون إيزابيل فـي الجزائر جميلا، سـاحرا: «لقد مضـى زمان طويل وأنـا هنا، والبلد أخاذ إلى أبعد الحدود، وبسـيط إلى أبعد الحدود، بتضاريسه ذات الرتابة المتوعدة، ليكون هذا التعلق وهمـا عابـرا وجماليـا، بالتأكيد لا، ما أسـرني ولا سـحرني إلى هذا الحـد مكان آخر علـى الأرض كما فعلت فضاءات الوحشـة المتحركة للمحيـط الكبيـر الناشـف، والتـي مـن السـهول الصخريـة لقمـار ومن منخفضات شـط ملغيغـي الملعونة تؤدي إلى صحارى سـيناون وغدامس عديمة الماء».

نعـم أحبـت إيزابيل هذه الأرض، بكل جوارحهـا؛ كتبت عنها ولها، التحمـت بروحهـا مـع كل تفاصيـل حيـاة شـعبها وطقـوس عيشـه، تسـربلت بسـربال شـعبها، اعتنقـت دينهـا، تكلمـت لغتهـا الرخيمة الشجية، واحتضنت تربتها الدافئة في نومتها السرمدية.

كتبـت مـرة ميريـام بيـرد (Miriam Beard) حـول الرحلـة الحقيقية وكيف تؤثر في العمق الإنساني فكرا وروحا تقول: «أكيد أن الرحلة أكبر من المشـاهدة البصريـة، إنها التغيير الذي يمضي قدما، عميقا ومسـتمرا في أفكار الحيـاة»، وإيزابيل من الرحالة القلائل إن لم أقل الرحالة الوحيدة التي جسـدت هذا المعنى بهذا الشـكل التام، وذاك التحـول الفكـري والروحاني الذي شـكل منهـا إيزابيل أخرى، بامتداد حضاري آخر، وروح شرقية جديدة».

الأشياء، كل الأشياء ربما يعتريها الذبول، فتذوي، تندثر إلا حبها لصحرائهـا: «نعـم أحـب صحرائي، وفـي حب غامض، خفـي، عميق، يتعذر شرحه، ولكن حقيقي خالص وسرمدي».

إن حـب إيزابيـل للجزائـر، ولقيـم المجتمـع الـذي عاشـت بـين ظهرانيـه لا غبـار عليه، وقد حان الوقت لأن ينفـض الغبار وتدحض الإشـاعات التي حاكهـا البيوغرافيون الغرب حول شـخصية إيزابيل، فلربمـا زال الشـك من حـول سـيرتها وأفكارها في ذهـن الجزائريين المتعصبـين الذين تعودوا على النهل مـن مناهل ما وراء البحر. وهذا

المسعى، في اعتقادي مهمة الجميع من الدارسين والكتاب والمؤرخين الجزائريين خاصة الذين أهملوا شهادة هذه الرحالة، وأهملوا دورها كشاهدة على بدايات القرن العشرين من تاريخ الجزائر العام عموما والسوسيو الثقافي على الخصوص.

وإن شهادة الدبلوماسي الجزائري محمد الصالح دمبري التي كتبها في جريدة «الجزائر الأحداث» في العام ١٩٧٠ ونقلها محمد رشد في كتابه عن إبرهاردت، بادرة طيبة في الاتجاه السليم، لم تتبع بدراسات تعيد لإيزابيل اعتبارها وتمنحها المكانة اللائقة بها. يقول محمد الصالح دمبري عن إيزابيل وموقفها من الجزائر والمجتمع الجزائري: «كصحافية شغوفة، وجزائرية متحمسة، انغمست في تحليل الحياة الإنسانية في الجزائر في تلك الفترة، متهمة التمييز الذي تفرضه الشؤون السياسية الاقتصادية الجديدة، والسلب المخزي والفاضح للسكان الأصليين، أدانت عصر القواد والموظفين ذوي النفوذ المكلفين بتعمير الجزائر. لقد كانت متأكدة من إفلاس الاحتلال، ذلك أنه في حين كان لويس برتراند وأنصاره بنزعة رومانية يستحضرون كل ما هو لاتيني أو مسيحي، كانت هي تعيد وبقوة القيم العربية الإسلامية والتحام العالم العربي البربري».

إن هذه المجموعة والتي تضم القصص التالية: الغريمة، نحيب اللوز، ياسمينة، النقيب، تتباين مواضيعها وتختلف؛ تحاول من خلالها إيزابيل رصد الحياة وعادات المجتمع الجزائري وأحلامه وآماله ومعاناته، وتنبني قصصها غالبا على ثنائيات متناقضة متعددة، التقاء حضارتين، الحضارة العربية الإسلامية - الحضارة الغربية، المستعمر - المستعمَر، العامل - رب العمل، رجل الدين - المريدون، البؤس - السعادة وغيرها من الثنائيات، فقصة ياسمينة على سبيل المثال قصة حب تعالج من خلالها التقاء الغرب في شخص الضابط جاك بالشرق الممثل في شخصية ياسمينة، وفي الوقت نفسه هو التقاء واختلاف المستعمِر والمستعمَر في نمط

الحيـاة والتفكيـر وهو الصـراع القائم بينهما، وتذكرنـي هذه القصة بروايـة «الجوهـرة والأسـد» (The Lion and the Jewel) للكاتب النيجيري صاحب جائزة نوبل بول سـوينكا والذي من خلالها يعالج الصراع نفسه القائم بين الأفريقي والأوروبي.

و«ياسمينة» ما هي إلا خطوة أولى أردت من خلالها أن أساهم ولو بجزء بسيط في التعريف بهذه الكاتبة والرحالة وببعض أعمالها.

تقول إيزابيل: «لسـت سـوى شـخص غريـب الأطـوار، حالمة تريد أن تعيـش بعيـدا عـن العالـم، أن تعيش الحيـاة الطليقـة والراحلة، لتحـاول بعد ذلـك أن تقول ما رأت وربما أن تنقـل إلى البعض بعض الارتعاشـات الكئيبـة المبهمـة والآسـرة التي تحـس بها أمـام الروائع الحزينة للصحراء».

وأنـا بدوري أقول إنني من خلال هـذا العمل المتواضع ما أردت إلا أن أقاسـم القـارئ المعـرب لذة هذه النصـوص الجميلـة، وأن أنقل له بعضا من اختلاجات هذه الإيزابيل الجزائرية القضية والسلوك.

إن الـكلام عن إيزابيل ممتـع وأخاذ ولو أطلقت العنان ليراعتي لما توقفـت هنـا، فليعذرني القارئ الكريم عن هذه الإسـهابات التي ربما جاءت في غير مكانها هنا، وليسمح لي بإنهاء هذا الكلام بهذا المقطع الشعري من قصيدة بعنوان: إيزابيل.. أميرة الرمل.

أأميـرة هذا الرمل...

ما عاد أريج الوردة يثلج مهجتنا

ما عادت تستهوينا مدن الفل

ما عاد غروب الشمس يهز مشاعرنا

ما عاد شروق الفجر الآسر يدهشنا...

أو هدء الليل

وهج الحس خبا

والقلب عن الحسن نبا

فغدت دنيانا مقبرة

وصحارى الروح حدائق من وحل

أأميرة هذا الرمل

كم غنيت ذي الأرض

ها قلب الأرض إليك الآن يحن

فخذي كل جلال الأرض

ها نبض النبض إليك الآن يئن

فخذي سحر جلال النبض

وشموخ النخل

وشذا الصحراء، وعطر التل

يا امرأة من نار...

يا امرأة من وهج الرمل.

حسن دواس

رمضان جمال، في: ٤ مارس ٢٠٠٥

بيوغرافيا إيزابيل إبرهاردت

ميلادها ونسبها

إن هوية إيزابيل إبرهاردت غير واضحة ويسـودها كثير من الغموض، وقد أسالت حبر كثير من كتاب سيرتها، إذ إنها أعلنت ابنا غير شرعي بعد مرحلة من عمرها.

أمها ناتالـي إبرهاردت، أرسـتقراطية ألمانيـة تتبع المذهب اللوثري (المصلح مارتن لوثـر)، كانت متزوجة بالجنرال بول دي موردر والتي أنجبت منه ثلاثة أولاد حين قاما بتوظيف ألكسندر نيكولايفيتش ثروفيموفسـكي المدعو فيفا كمـربٍ للأولاد، كان ثروفيموفسكي - وهو قس أورثوذوكسي أرميني سابق، ثم تحول إلى ملحد، عدمي - رجلا عالما، مثقفا، وفيلسوفا، ويتقن العديد من اللغـات: التركية، والألمانية، والعربية والروسـية، وكان فيفا جذابا فتعلقت به ناتاليا لتفر معه إلى سويسرا، تاركة زوجها. غير أن أسباب هروبها غير واضحة ويمكن أن تكون أسبابا سياسية، أكثر من فرار عاشقين، إذ ومن دون شك أن ثروفيوموفسكي قد مارس دورا في الحركة الثورية الروسية في ذلك الوقت.

يائسـا، كان بـول دي موردر يتبـع ناتالي فـي ترحالها عبر أوروبـا لينتهي بهما الأمر إلى التصالح ويولد لهما ابن يعترف به الجنرال. لكن بعد سـنة يموت بول دي مـوردر تاركا ثروة هائلة لزوجته.

أمضت ناتالي وألكسندر السنوات التالية مع الأولاد مرتحلين عبـر أوروبا، وكان ألكسـندر يقوم بزيارة لروسـيا بـين الفينة

والأخرى للإشراف على إدارة أموال رفيقته.

وفي أحد غياباته المتكررة، وبالضبط في السابع عشر من فبراير سنة ١٨٧٧ وضعت ناتالي بنتا هي :إيزابيل، كان ذلك بجنيف في سويسرا في فيلا فانت (Fendt)، الواقعة بحي الكهوف (Quartier des Grottes).

لكن ثروفيموفسكي رفض الاعتراف بأبوة البنت لعدائيته للعقود والأعراف، أو بتحريض من أطراف ما أو لسبب آخر، وحملت إيزابيل لقب جدتها إبرهاردت. لقد تعرض أمر ميلاد إيزابيل إلى كثير من المضاربات من طرف المهتمين بحياتها، حتى أن بعضهم نسبها للشاعر الفرنسي الكبير آرتر رامبو؛ لما وجد من تشابه كبير بينهما، وتؤكد الكاتبة الفرنسية فرانسواز دوأوبسون، أن والد إيزابيل هو الشاعر المعروف رامبو، وليس الجنرال الروسي الآنف الذكر. ودليلها على ذلك إضافة إلى التشابه الكبير بين ملامحهما، أن اسم «ايزابيل» هو في الوقت نفسه اسم شقيقة رامبو الذي كان متعلقا بها إلى درجة كبيرة، كذلك الجملة الواردة في أحد كتبها..» أنا أيضا سأموت مسلمة مثل أبي" حيث يقال إن رامبو بعد رحلة ضياعه في وادي النيل قد اعتنق الإسلام.

ولكن الأغلب أن إيزابيل هي ابنة ثروفيموفسكي ولكن البيوغرافيين خاصة الفرنسيين منهم أطلقوا العنان لخيالهم واستنتاجاتهم وأحكامهم الجاهزة في كثير من الجوانب التي تمس حياة إيزابيل ، لأسباب معلومة أهمها مواقف إيزابيل من القضية الجزائرية ومساندتها المستميتة للشعب الذي احتضنها

وأحبها وأحبته. وقد آن الأوان لتسليط الأضواء على حياة هذه الشخصية الكاريزماتية وعلى أعمالها من طرف باحثين جزائريين، وإعادة الاعتبار لقلم جاد كان شاهدا على حقبة مهمة من تاريخ الجزائر.

نشأتها

قرر فافا وناتالي بعد كبر إيزابيل الاستقرار بسويسرا رغبة في المحافظة على الأولاد وخوفا من استنكار علاقتهما بروسيا التي لم تكن متفتحة في ذلك العهد.

وأقامت العائلة بميرين (Meyrin) بفيلا نوف (Villa Neuve) وقضت إيزابيل طفولتها برفقة الأولاد الأربعة لناتالي: نيكول، أوغستين، ناتالي وفولوديا. وسط هذه العائلة الرحالة ترعرعت إيزابيل.

في البدء، كان فافا، والدها من تولى تعليمها، لقد كان فوضويا وكذلك أنشأ إيزابيل، لم يدخلها المدرسة ولكنه درسها الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والكيمياء وقليلا من الطب كما علمها اللغات التي يعرفها: اليونانية، التركية، اللاتينية، العربية، الألمانية، الإيطالية وطبعا الروسية، التي لم يزل يتكلم بها، أما ناتالي والأولاد وكأرستقراطيين حقيقيين، كانوا يتكلمون الفرنسية.

لم يقتصر ألكسندر على تعليم إيزابيل العلوم الإنسانية واللغوية فقط ولكنه كان يدربها على كل مناحي الحياة، فقد ابتاع لها حصانا وعلمها كيف تركب الخيل وتتعامل معها، ولعل دروس الفروسية هذه وغيرها هي التي ساعدتها على اختراق الصحراء

ورمالها والتوغل في دروبها الوعرة والتعامل مع طبيعتها القاسية. ثم التحقت فيما بعد بالمدرسة الثانوية.

وقد أدت فيلا نوف دورا مهما في انفتاح إيزابيل على ثقافات متعددة مختلفة، إذ كانت مقر التقاء الثقافات العالمية وكانت تسمع كل اللغات هناك، إضافة إلى المكتبة الكبيرة الموجودة بها والزاخرة بالمعاجم والكتب المختلفة اللغات والتي نهلت منها إيزابيل الكثير.

في هذا الوسط الفكري والمتعدد الثقافات، تفتحت إيزابيل وتفجرت فيها رغبة الاستكشاف، وراحت تملأ الدفاتر بعديد الملاحظات في التاريخ والجغرافيا والأدب... لقد كانت تطالع كثيرا.

لكن ذلك الغليان الثقافي وتلك اللقاءات بمنزل إيزابيل أثارت شكوك شرطة الأجانب؛ فناتالي وألكسندر لم يكونا إلا مجرد لاجئين روسيين في نظر السلطات.وهذا ما أدى إلى تشتت العائلة شيئا فشيئا، إذ في سنة١٨٨٣ غادر الابن الأكبر نيكولا منزل العائلة إلى روسيا.

كانت إيزابيل لأسباب نفسية ترتدي لباس إخوتها، ولكن الأمر راقها فأصبحت تحب تلك الأثواب الذكرية فراحت تتزين بهذه الألبسة الغريبة لتتسكع بها في شوارع جنيف.

في سنة ١٨٨٨ جاء دور الشقيق الآخر لإيزابيل لمغادرة المنزل والالتحاق بجيش الأجانب في الجزائر. لتسمع إيزابيل ربما لأول مرة أخبار الجزائر .

وبمجرد رحيل شقيقها راحت إيزابيل تتعلم اللغة العربية

والقبائلية، كذلك الرسم لتتمكن من إعداد الرسومات التخطيطية الضرورية للرحالة. ومنذ ذلك الوقت لم تعد تفكر إلا في السفر والكتابـــة، ولهذا طلبت من أخيها أن يــدون بدقة يوميات حياته كجندي. حتى هي اســتعارت اســـم نيكولا بودنســكي، وربطتها علاقة مراسلة بينها وبين أحد أصدقاء أخيها البحارة.

رحلتها إلى شمال أفريقيا

وتجســـدت أحلامهـــا في المغامـــرة والســـفر أولا عن طريق الكتابة بمســـاعدة أخيها الذي كانت تتبادل معه الرسائل ويصف لها يومياته بالجزائر، وكان أول ظهور لها على الساحة الإعلامية سنة ١٨٩٥ حيث نشرت أولى قصصها «كانفرناليا رؤية غسقية» فـــي المجلـــة الباريســـية الجديـــدة - La Nouvelle Revue parisienne- وكـــذا «رؤية المغرب» التـــي تصف فيها الجزائر قبل رؤيتها لها.

في شهر مايو من ســـنة ١٨٩٧ غادرت إيزابيل برفقة والدتها جنيف باتجاه الجزائر، وعمرها عشـــرون سنة، واستقرا بمدينة عنابة بالحي العربي الذي اعتنقا فيه الإســـلام هناك. لكن الأم أصيبت بمرض اضطر الزوج ثروفيموفســـكي إلى الالتحاق بهما حيث وجد إيزابيل في وضعية نفسية متدهورة جدا وقد أصيبت بحالة مـــن الجنون والصرع نتيجة لعـــدم مقدرتها على الوقوف بجوار أمها في محنتها الصحية. وفي الثامن والعشرين من شهر نوفمبر من السنة نفسها توفيت ناتالي دي موردر عن عمر يناهز ٥٩ ســـنة. وقد أثـــر رحيل أمها كثيرا في معنوياتها، فســـافرت

إلى تونس لقضاء فترة نقاهة على حساب السلطات الفرنسية، ولم تغير إيزابيل هناك من طبعها، ونمط حياتها، مرتدية لباس الرجال، كانت تنام بالمقاهي وتخالط بسطاء الناس سابرة أغوارهم، مستكشفة طرائق عيشهم وتفكيرهم.

في العام ١٨٩٨ نشر الجهاز الإعلامي L'Athénée بعض قصصها ومقالاتها، ولكنه توقف عن النشر لها بعد نزاع وقع بينها وبين المدير بسبب قضية دريفيس وأفكار أخرى معادية للسامية، وبقيت إيزابيل بلا مصدر رزق. في هذه الفترة بدأت في كتابة «راحيل»، وهي رواية تدور أحداثها حول قصة حب بين طالب مسلم وفتاة يهودية، وهي الرواية التي رافقتها أينما ذهبت والتي لم تستطع إكمالها.

وفي ١٤ مارس سنة ١٨٩٩ اضطرت إيزابيل للعودة إلى جنيف بعد مشاركتها في تمرد للجزائريين ضد المستعمر الفرنسي، والتي وصلتها قبل مدة قصيرة من انتحار شقيقها فولوديا أو فلاديمير ومكثت هناك بجانب أبيها فافا إلى أن توفي بمرض السرطان.

كان لفقدان والديها وأخيها أثر كبير في إيزابيل من الناحيتين النفسية والمادية، فقد كان لزاما عليها أن تعتمد على نفسها، فعادت إلى تونس، وهي تجهل كيف ستعيش هناك بالمال القليل الذي كان معها والذي بدأ يتناقص، ثم تركت تونس لتلتحق بأخيها أوغستين بمرسيليا، كي تجده هو الآخر معدما، يتخبط في صعوبات مالية جمة، فزارت العديد من المدن الفرنسية باحثة عن مصدر مالي، وفي العاصمة الباريسية حاولت أن تحصل

علـــى وظيفة كصحفية، ولكن دون جدوى لولا تعرفها هناك على الماركيــزة مور التـــي مات زوجها بالجنوب التونســـي في ظروف غامضـــة، أثناء إحدى الحملات العســكرية .كانت الماركيزة مور تريد معرفة حيثيات وظروف وفاة زوجها، ولما أعجبت بشخصيتها وجرأتها وذكائها كلفتها بمهمة التحري عن تلك الظروف ومعرفة الحقيقة الكاملــة. وهكذا عادت إيزابيل إلى تونس برفقة أخيها أوغســتين مرة أخرى في شـــهر يونيو ١٨٩٩. كانت تلك الرحلة مثمرة بالنسبة لها على الصعيد النفسي خاصة، واستطاعت أن تعرف أن زوج الماركيزة مات منتحرا.

ومن تونس تتابع إيزابيل رحلتها وحدها إلى الجزائر العاصمة، مــرة أخرى، وذلك في العام ١٩٠٠، ومنها تســافر إلى تقرت ثم الــوادي، الذي تعرفت فيه على ســليمان أهني أحد الفرســان المسلمين الصبائحيين.

وفي ٢٩ من شـــهر يناير العــام ١٩٠١ نصب أبو أحمد رئيس الطريقة التيجانية التي تعادي الطريقة القادرية، كميناً لمجموعة مــن الخيالة، كانت إيزابيل ضمنهــا فجرحت جرحا كبيرا لكنها نجت من الموت بعد عملية جراحية ناجحة في مستشفى «العويد» حكم بعدها على الجاني بالأشــغال الشــاقة وعلى إيزابيل بعدم دخولهــا الجزائر. وأثنــاء محاكمة الجاني بمحكمة قســنطينة وقفت إيزابيل بجانب الرجل الذي اعتدى عليها بالسكين، طالبة الصفح عنه مما أثار سخط هيئة المحكمة الفرنسية.

وبسبب تلك الأحداث ونظرا إلى نمط حياة إيزابيل الغريب، ثارت بعض الشكوك حولها ؛ فتاة في زي الرجال تسمي نفسها

سي محمود السعدي، تحمل جواز سفر روسيا، تعتنق الإسلام ، تقطع الصحراء بمفردها، تسجل كل كبيرة وصغيرة أينما تمر، وتنشر كل ذلك في العديد من الصحف والمجلات.

وفي مايو ١٩٠١ أجبرت إيزابيل على مغادرة الجزائر. وتوجهت إلى مرسيليا، باسم مستعار، متنكرة في بدلة العمال الزرقاء، حتى تتمكن من السفر في الدرجة الرابعة الممنوعة على النساء.

في مرسيليا فكرت إيزابيل في العودة ثانية إلى الجزائر، ولم يكن أمامها من سبيل إلى ذلك إلا الزواج، ولأنها كانت تدرك أن سبيل العودة إلى الجزائر هو الزواج من فرنسي واستطاعت أن تتحصل من السلطات الفرنسية على رخصة الزواج المدني وتم ذلك بعد التحاق سليمان بها بمرسيليا في ١٧ أكتوبر ١٩٠١ وأصبح اسمها ليلى محمودة. وبذلك استطاعت العودة إلى فردوسها المفقود في الصحراء الجزائرية وسط الرمال الذهبية حيث يسطع النور من كل الجهات. وعادت إيزابيل برفقة زوجها سليمان إلى الجزائر في ١٤ يناير ١٩٠٢.

وعن زواجها كتبت الكاتبة الفرنسية سيمون دوبفوار.. «عندما تزوجت إيزابيل التي انطلقت إلى الصحراء بزي الرجال على ظهر جوادها، لم تشعر بعدم الاحترام تجاه ذاتها. من الصعب القول لماذا اختارت ايزابيل هذا الزي. قد يكون ذلك قد راق لها أو اعتمدته للدفاع عن نفسها. إن الزي الرجالي قياسا إلى الزي النسائي شيء مصطنع، لكنه قياسا إلى الزي النسائي أكثر راحة. جورج صاند مثلا، كانت مثل

إيزابيل ترتدي ملابس الرجال»...

بعـــد رجوعها إلى الجزائـــر، انطلقت تختـــرق الرمال في اهتمام خـــاص بالمياه مـــن ينابيع ووديان وبالنـــاس وعاداتهم ونمط حياتهم. وفي زيارة لهـــا إلى الجزائر العاصمة، عرض عليها الناشـــر فيكتـــور باريكـــون (Victor Barrucand) العمـــل كمبعوث خاص لجريـــدة الأخبار، كمـــا تعاونت أيضا فـــي المجال الإعلامي مع لوس دنابـــين (Luce Denaben) مديرة مدرسة أوفروار للفتيات المسلمات بالجزائر. ولأول مرة يمكن القول إن إبرهاردت عاشت حقيقة من مصدر الصحافة وأصبح لها دخل منتظم، خاصة أن سليمان أيضا تحصل على منصب عمل كمترجم، وتقربـــت إيزابيل في تلك الفترة أيضا من جماعة من الكتاب أصدروا مجلة أدبية أســـموها «فرنسا الكبرى» La Grande France.

شـــغوفة بالذهاب إلى عمق الأشـــياء، عاشـــقة للفضاءات الرحبة، ظمأى لاستكشاف المجهول دوما، كانت إيزابيل تتوغل أكثر فأكثر في الصحراء الشاسعة، وكانت رحلاتها تلك تنشر بانتظام في جريدة الأخبار حيث تتولى تحرير عمود ثابت بها. في كتاباتها الطافحة بالألوان القزحية والأجواء الســـحرية لم تتردد إيزابيل في الدفاع عن القضايا الإنســـانية وفضح بعض ممارسات المســـتعمر الفرنسي الذي لم ترق له بعض مواقفها والـــذي ربما قـــام بإتلاف جزء من كتاباتهـــا خاصة اليوميات الخامســـة بعد العثور عليها تحت الأنقاض من طرف الجنرال ليوثي.

في خريف ١٩٠٣ (شهر سبتمبر) أرسلت إلى الجنوب الوهراني كمراسلة حرب - وتجدر الإشارة هنا إلى أنها كانت أول امرأة مراسلة حرب في نهاية القرن التاسع عشر - من طرف جريدة الأخبار، بعد موافقة الجنرال ليوثي لتغطية أحداث المواجهات بين المقاومة الجزائرية وجنود الاحتلال الفرنسي، وكذا الصراع الحدودي بين الجزائر والمغرب. وأقامت بعين الصفراء، لتلتقي بالماريشال ليوثي في ديسمبر ١٩٠٣ ببني ونيف.

وفي مايو ١٩٠٤ عادت إيزابيل إلى عين الصفراء حيث استأجرت منزلا أقامت فيه هناك. في تلك الفترة كتبت كثيرا عدة مقالات عن المنطقة: عين الصفراء، فقيق، الزوبية، بني ونيف، كما التقت هناك مسؤول زاوية الشيخ بوعمامة الواقعة بالحمام الفوقاني.

وفي صيف ١٩٠٤ سافرت إلى المغرب، متجهة إلى مدينة قنادسة من أجل الالتقاء بالمتصوفين، قاصدة زاوية سيدي إبراهيم ولد محمد. هذه الأخيرة التي تعتبر مزارا للعديد من الشخصيات الدينية وتنظم ملتقى سنويا يحضره متصوفون من كل أنحاء الشمال الأفريقي. إيزابيل كانت في السنتين الأخيرتين من حياتها قد اعتنقت الطريقة القادرية وأطلق عليها مريدو الطريقة اسم «باز الإسلام» ونظرا للاضطرابات التي كانت تسود المنطقة، قبض على إيزابيل من طرف رجال الزاوية وزج بها في السجن لمدة أسبوع بتهمة التجسس لحساب الفرنسيين، لكن أطلق سراحها فيما بعد مباشرة.

وفاتها

كتبت إيزابيل إبرهاردت عن الموت:

«ربما يكمن كل السحر المؤلم في اليقين المطلق للموت. لو كانت الأشياء أزلية لبدت لنا غير جديرة بالتعلق بها».

في ٢ أكتوبر ١٩٠٤، تدخل إيزابيل المستشفى العسكري بعين الصفراء للمعالجة من مرض الملاريا الذي كانت تعاني منه منذ مدة، وبقيت بالمستشفى لمدة أسبوعين. بعد خروجها كتبت لسليمان رسالة تطلب منه الالتحاق بها لمرافقتها، حيث استأجرت منزلا من الطين في الجهة المنخفضة من القرية واستقرت به.

في ٢١ أكتوبر ١٩٠٤، بعد تغير مفاجئ في الأحوال الجوية، غمر المدينة الوادي، الذي كان جافا بالكلية، ودمر جزءا من عين الصفراء. استطاع سليمان أن ينجو من هذه الكارثة الطبيعية، غير أن إيزابيل وقد أضعفها المرض لم تستطع الهروب ووجدت ميتة تحت أنقاض منزلها، مرتدية لباس الفرسان العرب. ودفنت على الطريقة بمقبرة سيدي بوجمعة الإسلامية.

بعد الحادثة أرغم الجنرال ليوتي جنوده على البحث عن مخطوطاتها، وتم العثور على مخطوطها المعنون بـ «الجنوب الوهراني» الذي نشره باريكون فيما بعد، سنة ١٩٠٥ تحت عنوان «تحت ظلال الإسلام الدافئة» (Dans l'ombre chaude de l'Islam).

وحتى الآن وبعد مرور أكثر من قرن على وفاتها، تبقى إيزابيل شخصية مثار إعجاب ومازال الكتاب ينشرون كتبا حول أعمالها وشخصيتها الأسطورية المتميزة.

أعمالها

تركـــت إيزابيـــل بعد وفاتها عـــدة أعمـــال مخطوطة وأخرى منشـــورة في الجرائد والمجلات، وتعتبر أعمالها وثائق شـــاهدة على العصر وعلى فترة مهمة من تاريخ الجزائر وقد نشـــرت كما يلي:

كتابات على الرمل sur le sable Ecrits

من جزأين، عرض وتعليق ماري أوديل دولا Marie-Odile Delacour كور وجون ريني ايلو Jean-René Huleu وكتبت المقدمة إدموند شارل رو d'Edmonde Charles-Roux

باريس، غراسي ١٩٨٨-١٩٩٠

الجزء الأول:

ســرديات، ملاحظـــات ويوميـــات Récits، notes et journaliers

يحتوي على ملاحظات في الرحلات، كتاباتها الأوتوبيوغرافية الحميمة الشخصية

تسكعات Vagabondages : مجموعة من ذكريات رحلاتها في الصحراء التونســية. نشر في المجلات في حياتها ثم أصدره بعد وفاتها صديقها فيكتور باريكون

عودة إلى الجنوب Retour au sud.

يخص الجزائر وبالضبط الجنـــوب الوهراني وهو عبارة عن ملاحظات في الطريق

كتبت الجزء الأول منه حين كانت مراسلة حرب على الحدود المغربية الجزائرية سنة ١٩٠٣.

أما الجزء الثاني فكتب خلال إقامة أخرى بالجنوب الوهراني وقد فاحت بعطر البعد الصوفي مع وصف للقنادسة قلعة الصحراء الدينية. بعد موتها نشر فيكتور باروكون بعد تحوير في «ملاحظات في الطريق» و«في ظل الإسلام الدافئ»

اليوميات Les Journaliers

هي بمنزلة دفتر شخصي وأدبي كتبته خلال الأربع سنوات الأخيرة من حياتها ويبرز ذوقها الأدبي إعجابها ببيير لوتي والإخوة جونكور، وعشقها للمطلق، وميلها للصوفي، وحالات الإحساس بالوحدة، وحزنها لموت الأقرباء، وحبها لزوجها سليمان، ومحاولة اغتيالها الخ....

الجزء الثاني

قصص وروايات

وقد خصص للكتابات القصصية ويضم:

المرآة- رؤيا المغرب - انفرناليا - الجحيمية -النقيب - المغربي- الزاوية- أم زهار - تحت النير - الساحر- وصول المحتل - تسعديت- ياسمينة - ليالي رمضان - الفلاح - عين جابود - الدرويشة - المداح - نحيب اللوز- عصر العدم - الفوقارة- المتشرد - جنة الماء- مريمة - مطورني- الليل - في الفجر- السترة الزرقاء - المشعوذ - دكتوراه - العلماء - رواية التركي - الفوضوي - أسداف أفريقية - المخدوعون- مآثر

الأهالي- أشــواق - المجوســـي - المزخرف المحتـــرم - اليد - في الكثيب- الصديــق - صورة أولاد نايل - تاعليت - مجرم- الخوني- على الهامش - شـــحاذ - زهور وياسمينة- في درب اللـــه - تخييم - حداد - أفراح ســـوداء - ســـيراس - يهودا- المتسكع- ايوستراث.

كتبت إيزابيل حوالى ســـتين قصة، نشـــر معظمها في حياتها بالصحافة الجزائرية على شكل حلقات

الأخبار - البرقية الجزائرية la Dépêche Algérienne

كتابات حميمة: رسائل إلى أحب ثلاثة رجال

Ecrits intimes: lettres aux trois hommes les plus aimés

ونشـــر بتعليق وتقديم ماري أوديل دولا كور Marie-Odile Delacour وجون ريني ايلو Jean-René Huleu

بالاشتراك مع فائزة عبد الوهاب. بباريس، بايو، ١٩٩١

وهو عبارة عن مراســـلات مع شـــقيقها أوغستين، وصديقها وأمين سرها علي عبد الوهاب وزوجها سليمان. هذه المراسلات امتدت على مدار سبع سنوات وتبرز شخصيتها المعقدة والمتميزة.

بيبليوغرافيا

Trimardeur (Roman) - Éditions Fasquelle. Paris, 1922

Ecrits sur le sable (t. 1) (Récits) - GRASSET ET FASQUELLE, 1988

Ecrits sur le sable (t. 2) (Récits) - GRASSET ET FASQUELLE, 1990

Lettres et Journaliers (Lettres) - BABEL (ACTES SUD), 1992

Dans l'ombre chaude de l'Islam (Récits) - ACTES SUD, 1996

Yasmina et autres nouvelles algériennes (Nouvelles) - LIANA LEVI, 1998

NOTES DE ROUTE. Maroc - Algérie - Tunisie (Récits) - BABEL (ACTES SUD), 1998

Ecrits intimes. Lettres aux trois hommes les plus aimés (Lettres) - Payot, 1998

Un amour d'Algérie (Nouvelles) - Éditions Joelle Losfeld, Paris, 1998

Ecrits intimes (Correspondance) - Éditions Joelle Losfeld, Paris, 1998

L'Ecriture de sable (Récits) - Editions Barzakh, Alger, 2002

Au pays des sables (Nouvelles) - Éditions Joelle Losfeld, Paris 2002

Sud Oranais (Journal) - Éditions Joelle Losfeld, Paris 2003

المراجع

هذه المعلومات مستقاة من العديد من المقالات والمواقع على الشبكة العنكبوتية حول الكاتبة والرحالة إيزابيل إبرهاردت أهمها:

http://switzerland.isyours.com/s/index.html
http://ns35.hosteur.com/~eloued/index.htm
http://www.memo.fr/index.htm
http://dzlit.free.fr/listelivre.php?letr=_&tit=eberhardt&Ex%E9ctit=Rechercher
http://www.geneve.ch/fao/2002/20020902.asp
http://www.digbib.uio.no/roman/Art/Rf-16-02-2/fra/Barstad.pdf
http://mapage.noos.fr/sacados/lectures/lectures52.htm
http://www.rosadoc.be/site/mainfr/spotfrans.htm

الغريمة

في أحد الصباحات، توقفت الأمطار المشـــجية فجأة، وأطلت الشمس في سماء صافية صراح، ذات زرقة بالغة، وقد اغتسلت من أبخرة الشتاء الباهتة.

في الحديقـــة المنزوية كانت شـــجرة الأرجـــوان الكبيرة تمد أذرعها الموسوقة بالأزهار الوردية الصينية.

إلى اليمين يمتد الانعطاف البادخ لروابي مصطفى وينأى في شفافية لامتناهية.

كانت هناك شذرات ذهبية على الواجهات البيضاء للفيلات.

هناك بعيدا تتبســـط أجنحة الزوارق النابوليثانية الشـــاحبة على موج الخليج الهادئ.

تمر نسمات مفعمة بالرقة في الهواء الدافئ. تقشعر الأشياء فجأة فتستفيق في قلب المتشرد أوهام الانتظار، والاستقرار والسعادة.

ينعـــزل مع تلـــك التي أحبهـــا قلبه في المنـــزل الصغير حيث تمر الساعات بلا إحســـاس وفي وهن سائغ، وراء المشربية ذات الخشب المنحوت، وراء الستائر ذاوية الألوان.

في الجهة المقابلة كان الديكور الكبير للجزائر وهو يدعوهما إلى احتضار لذيذ.

لمـــاذا الرحيـــل، لمـــاذا البحث عن الســـعادة في مـــكان آخر، والمتشـــرد يعثر عليها هنـــا؟ لا حد لها في ثمـــر البرقوق المتغير للحبيبة حيث يغوص بنظراته طويلا، طويلا إلى أن تســـحق كآبة الشهوة القصوى روحيهما؟

لماذا البحث عن فضاء حين تنفتح خلوتهما الضيقة على الآفاق الفسيحة، حين يحسان أن الكون فيهما يختزل؟

كان كل شيء عدا حبه يبتعد... يرتد إلى موجات تنأى.

يتخلى عن حلمه الداعي للفخر بالوحدة، يتنكر لديار الصدف والمخاطرة والطريق الصديقة، تلك الخليلة المستبدة، المنتشية بالشمس، تلك التي طالما أخذها وأحبها.

استسلم المتشرد بقلب مضطرم ساعات وأياما لهدهدة إيقاعات النشوة التي كانت تخيل إليه أزلية.

كانت الحياة والأشياء تبدو في مخيلته جميلة، فكر أيضا أن وضعه الآن قد صار أحسن، وقد غدا أكثر رقة في قوة سلامة جسمه المنكسر، وطاقة إرادته الذاوية.

..في الماضي، أيام المنفى وفي خضم السأم الساحق للمعيشة الحضرية في المدينة، كان قلب المتشرد يعتصر وجدا لذكريات فتنة المشهد الساحر للشمس على السهل الطليق.

والآن، وهو يفترش سريرا دافئا في شعاع من أشعة الشمس الذي يتسلل من النافذة المشرعة، يمكنه أن يستحضر وبصوت خافت جدا، في أذن الحبيبة رؤى وطن الأحلام، ممزوجة فقط بالكآبة المبهمة الرقيقة كأنها عطر الأشياء الميتة.

لم يعد المتشرد يأسف على أي شيء. إنه لا يرغب إلا في تلك اللحظات السرمدية للذي كان.

أسدل الليل الدافئ ستائره على الحدائق. صمت يخيم، وتنهدة عميقة تصَّاعد، تنهدة البحر الذي ينام هناك في المنخفض السحيق تحت النجوم. تنهدة الأرض المفعمة بحرارة الحب.

نيــران تتوهــج كاللآلئ على قمم الروابــي الغضة. أخرى تناثــرت على الســاحل كأنها حبات مســبحة ذهبية، وأخرى تشتعل كأنها عيون حائرة في مخمل ظل الأشجار الباسقة .

خرج المتشــرد وحبيبته إلى الطريق المقفرة إلا منهما، وقد اشتبكت أيديهما وراحا يبتسمان في الليل.

لم يتكلما، ففي الصمت يتفاهمان أكثر.

وصعدا المنحدر الســاحلي ببــطء، بينما كان القمر ينبعث من بين أشــجار الأوكاليبتــوس على أولــى تضاريس متيجة المنخفضة.

وجلسا على صخرة.

ينبعث بريق أزرق على الريف الليلي، وتهتز أرياش البلشون الفضية على الأغصان الرطبة.

تفرس المتشــرد في الطريــق طويلا، الطريق الفســيحة البيضاء المسافرة بعيدا، في المدى.

طريق الجنوب

واهتز عالم من الذكريات في روح المتشرد التي استيقظت فجأة.

أغمــض عينيه ليطــرد تلك الرؤى، وتشــنجت يده في يد الحبيبة وهو يشدها

لكنه، رغما عنه، يفتح عينيه.

عشقه القديم للخليلة المســتبدة المنتشية بالشمس يعاوده من جديد، كان لها بكل وجدانه.

وهو ينهض، ألقى نظرة طويلة إلى الطريق للمرة الأخيرة:

لقد كان موعودا بها.

... دخـــلا ظل حديقتهما المفعم بالحيـــاة وخلدا للنوم في صمت تحت شجرة الكافور الباسقة.

فوق رأسيهما كانت شجرة الأرجوان تمد أذرعها الموسوقة الملأى بأزهار وردية تبدو كأنها بنفسجية، في الليل الأزرق.

ينظر المتشرد إلى حبيبته الجالسة قربه.

لم تعد سوى رؤية ضبابية مائعة وستنقشع في ضياء القمر.

كانت صـــورة الحبيبة باهتة، بعيدا هنـــاك بالكاد تتجلي.

حينئذ أدرك المتشـــرد الـــذي لم يزل قلبه ينبـــض بحبها أنه سيرحل في الفجر، وانقبض قلبه.

أمســـك زهرة كبيرة من الكافـــور العاطر وقبلها كي يخفي شهقة.

وراء الخط الأســـود للأفـــق، كانت الشـــمس الحمراء قد تلوثت في بحر من الدم.

وبســـرعة انطفأ النهار، وغرقت الصحـــراء الصخرية في شفافية سوداء.

واشتعلت بعض النيران في ركن من السهل.

بـــدو رحالة مســـلحون بالبنادق يهزون ســـتائرهم الطويلة البيضاء حول اللهب المضيء.

يطلق حصان مشكول صهيله.

رجل يجلس القرفصاء، رأســـه إلى الوراء، مغمض العينين كمـــا في حلم يدندن أغنية شـــعبية قديمة كئيبة حيث تتناوب كلمة حب مع كلمة موت.

ثم صمت كل شيء في المدى الشاسع الأخرس.

نائمـــا كان المتشـــرد، قرب نار نصف مطفأة وقد تســـربل ببرنوسه.

متكئـــا برأســـه على ذراعـــه، منهك القوى، استســـلم إلى الســـكينة اللامتناهية في أن ينام وحيـــدا مجهولا بين أناس بســـطاء وأجلاف، مجهولا حتى مـــن الأرض، الأرض الطيبة المهدهدة، في مكان مجهول من الصحراء وحيث لا يعود أبدا.

نحيب اللوز

إلى ماكسيم نواري، رسام الآفاق الملتهبة وشجر اللوز المنتحب.

تنام بوسعادة، الملكة الضارية متسربلة بحدائقها الداكنة ومحروسة بروابيها البنفسجية؛ لذيذة مثيرة على الضفة المنحدرة للوادي حيث يدمدم الماء على الأحجار البيضاء والوردية. وقد انحنت كما على لامبالاة حلم على الجدران الطينية الصغيرة، أشجار اللوز تذرف دموعها البيضاء تحت مداعبة الريح... وأريجها الزكي يحلق في دفء الجو الرطب ناثرا كآبة مبهمة فاتنة...

إنه الربيع وتحت مظاهره الذبول، ورقة الأشياء الشجية.

تنام الحياة كامنة عنيفة طافحة بالحب والشوق، يتدفق النسغ الغامر من ينابيع الأرض الخفية، كي تولد في نشوة مولد جديد.

يخيم صمت مدائن الجنوب على بوسعادة، في المدينة العربية يندر المارة، غير أنه في الوادي تتجول أحيانا كوكبة من النساء والفتيات في أثواب ساطعة.

ملاحف بنفسجية، زمردية، وردية ناصعة، صفراء ليمونية، حمراء رمانية، زرقاء سمائية، برتقالية، حمراء أو بيضاء، مزركشة بالأزهار والأنجم المتعددة الألوان... رؤوس مغطاة بالبناء الثقيل للتسريحة الصحراوية والمتكونة من ضفائر من أياد فضية أو ذهبية، وسليسلات، ومرايا صغيرة، وتمائم، أو متوجة بأكاليل شعرية مزينة بأرياش سوداء. كل هذا يمر، متألقا في الشمس، تتشكل المجموعات وتتبدل في شكل قوس قزح متغير باستمرار، كأنها فِرَق فراشات ساحرة.

هـــي مجموعات من الرجال قد تدثرت وتقلنســت بالأبيض، ذات وجوه علاها وقار واســمرار، تخرج في صمت من الشوارع المغراءة.

منذ سنوات لم يبرحا مكانيهما أمام كوخ الطين المجفف تحت الشـــمس الصديقة، مـــن الصباح حتى المســـاء. كانت العجوزان ترتديـــان ملحفتين داكنتي الحمرة يشـــكل صوفهمـــا الكث ثنايا ثقيلة حول جسديهما الموميائيين.

والتسريحة وفق عادات البلد، بضفائر صوف أحمر وضفائر شـــعر شـــهباء مخضبة بحناء برتقالية نير لونهـــا، وفي أذنيهما المتعبتين حلقات ثقيلة، بسليســـلات فضية مشـــبوكة في المناديل الحريريـــة للتســـريحة. وعلى الصـــدر الهابط قلائـــد من قطع الذهـــب والعجائن المعطرة المجففة، وصفائـــح ثقيلة من الفضة المرصعة؛ ومع كل حركة مـــن حركاتهما النادرة والبطيئة ترن كل هذه الحلي والأساور والخلاخيل.

كمعبودتين قديمتين منســـيتين بلا حراك، تنظران من خلال دخان سجائرهما الأزرق إلى الرجال وهم يمرون من دون التفات إليهمـــا، الفرســـان، مواكب الزفـــاف، قوافل الجمـــال والبغال، والشـــيوخ العجز، عشاق الأمس البعيد... كل حركية هذه الحياة لم تعد تعنيهما.

عيونهمـــا الذابلـــة، زاد فـــي اتســـاعها إفراط فـــي الكحل، خدودهمـــا متوردة برغم التجاعيد، شـــفاههما محمرة، كل هذه الأبهة تضفي ما يشـــبه الظل الكئيب على وجهيهما الشـــائخين الأدردين النحيلين.

... حين كانتا في عز شبابهما، سعدية ذات الوجه الدقيق المسفع والأنف المعقوف، وحبيبة البيضاء النحيفة، كانتا فتنة ليالي بوسعادة وأيامها وسحر البدو.

والآن، ثريتان، وقد تزينتا بثمار شراهة الأيام الغابرة، هاهما تحدقان في أمن وسلام في ديكور المدينة الكبيرة الزاهر حيث يحتضن التل الصحراء، وحيث تلتقي الأجناس الأفريقية لتشكل فسيفساء ممتزجة. وتبتسمان... ربما لهذه الحياة التي تستمر رتيبة ثابتة ودونهما، وربما لذكرياتهما... من يدري؟

وحين ينبعث صوت المؤذن الوئيد الأنيني مناديا المؤمنين تنهض الصديقتان لتؤديا الصلاة على سجادة طاهرة، وقد أحدثتا صليلا كبيرا بحليهما. ثم تعودان إلى مكانهما وأحلامهما، وكأنهما تنتظران أحدا لا يجيء...

نادرا ما تتبادلان بعض الكلمات.

انظري يا سعدية هناك. سي شعلال، القاضي... أوتذكرين زمان.. كان خليلا لي، كم كان فارسا أنيقا! كيف كان يمتطي بمهارة فرسه السوداء! كيف كان كريما، على الرغم من أنه لما يزل موظفا بسيطا. والآن إنه شيخ هرم... يحتاج خادمين لمساعدته على ركوب بغلته الحكيمة مثله، والنساء لا يتجرأن على النظر في وجهه... هو ذاك الذي كنت أشبع منه العينين قبلا!

نعم... وسي علي، الملازم الأول، الذي قدم مع سي شعلال فارسا بسيطا في الجيش الفرنسي والذي كم أحببته؟ هل تذكرينه؟ هو أيضا كان فارسا مقداما وشابا ظريفا... كم بكيت حين غادر إلى المدية! هو، كان يضحك، كان سعيدا، تم تعيينه

عريفا للتو، وها هو ينســاني... هكذا هــم الرجال... لقد توفي العام الماضي... رحمه الله!

يحــدث أحيانا أن تترنما ببعض أغاني الحب التي ترن غريبة في فميهما اللذين غدا الصــوت ينبعث منهما مرتجفا، مخنوقا تقريبا.

هكذا تعيشــان، غير مكترثتين بأي شيء، وسط أشباح الأيام الخوالي، منتظرتين ساعة الرحيل.

... تصعد الشمس بطيئة وراء الجبال المغطاة بضباب خفيف. يمر وميض أرجواني في وجه الأشــياء، كما ستار حياء. والأشعة الطالعــة تزرع أرياشــا من نار علــى قمم النخيــل وتبدو قباب النساك الفضية ذهبية. وللحظة تتوهج المدينة القديمة الضارية وكأن لهبــا فــي الأعماق أشــعلها، بينما تظل الحدائق، ســرير الوادي، والممرات الضيقة في الظل غامضة كأنها مترعة بدخان أزرق يذيب الأشــكال ويصقل الزوايا، فاتحــا أقاصا من خفايا بين الجدران الصغيرة المنخفضة وجذوع النخل المرصعة... على ضفــة النهر، يضفي بريــق النهار المورد لونــا ورديا ناصعا على عبرات اللوز الحالم المتناثرة، المجمدة في شكل ثلج بريء.

أمــام منــزل الصديقتين كانت الريح البــاردة قد أنهت بعثرة رماد الموقد المطفأ، لتأخذه في شــكل إعصــار صغير مزورق. سعدية وحبيبة ليستا في مكانهما المعهود.

فــي الداخل يتصاعد أنين أجش حينا، وثاقب حينا آخر حول الحصيــر حيث ترقد حبيبة، كلفافة قماش حمراء لا شــكل لها، علــى الجمود الهامد الذي منه تتــلألأ الحلي في مظهر غريب،

تنوح سـعدية وعاشـقات أخريات من الزمان الذي مضى وهن يمزقن وجوههن بضربات قاسـية من أظفارهن. وصليل الحلي يرافق في إيقاع منتظم عويل الباكيات.

في الفجر، ولأنها طاعنة في السـن أكثر من اللزوم ومنهوكة أكثـر من اللزوم، ماتت حبيبة من دون احتضار، وفي هدوء جليل لأن نابض الحياة قد انكسر في أعماقها شيئا فشيئا.

... يغسـل الجسد في ماء غزير، ويلف في كفن أبيض، يرش بالطيـب وينوم، الوجه مولى للشـرق. في منتصـف النهار يأتي رجـال ويأخذون حبيبـة إلى إحدى المقابر غير المسـيجة حيث يدحـرج رمل الصحـراء طوعا موجه السـرمدي على الأحجار الرمادية الصغيرة المتعددة.

انتهى كل شيء... وسعدية وحيدة منذ الآن قد أخذت مكانها. تتم زفرات الرمق القليل الذي تبقى من حياتها مع الدخان الأزرق لسـيجارتها الأبدية، بينما كانت على ضفاف النهر المشرق، وفي ظل الحدائق شجرات اللوز تتم ذرف دموعها البيضاء في بسمة ربيعية حزينة...

ياسمينة

كانت قد ترعرعت في وسط جنائزي، حيث في ظل الإقفار المطوق تطفو الروح الغريبة للعهود الخوالي.

هنا انقضت طفولتها، على الأطلال الرمادية، بين الأنقاض وغبار ماض تجهل عنه كل شيء.

ومن العظمة نفسها لهذه البقاع، تلقت ما يشبه الفائض من القدرية والحلم، غريبة، مكتئبة بين كل فتيات جنسها: هكذا كانت ياسمينة البدوية.

تقبع أكواخ قريتها بجنب آثار تيمقاد الرومانية، وسط سهل كبير، تناثرت بين جنباته صخور مجهولة بلا اسم ولا عمر، حطام تناثر وسط حقول البلان الشائك ذي السيماء الشرسة، النبات العشبي الوحيد الذي استطاع أن يقاوم الحرارة اللفوح لفصول الصيف المستعرة. هناك من نبات البلان الشائك كل الأحجام والألوان: الضخم ذو الأزهار الكبيرة الزرقاء، الحريرية وبين الأشواك الحادة الطويلة، أشواك أصغر قليلا، في شكل نجيمات ذهبية... كلها زاحفة، وأخيرا الأشواك ذات الأزهار الوردية الصغيرة الشاحبة. هنا وهناك، دغل ناحل من شجر العناب أو مصطلك تصهب بسبب الشمس.

قوس نصر لم يزل واقفا، ينفتح في شكل منحنى جسور على الأفق المتأجج. أعمدة عملاقة، بعضها مكلل بتيجانه، والبعض الآخر محطم، فيلق من الأعمدة متجهة صوب السماء، وكأنما هي في ثورة غضوب عديمة الجدوى ضد الموت المحتوم...

مدرج بمقاعـــد نظفت وأزيل ركامها حديثا، ســاحة صامتة، دروب مهجـــورة، هيكل كلي لمدينة كبيرة منتهية، كل المجد المظفر للقياصرة المهزومين من طرف الزمن ومن طرف الحنايا الغيورة لأرض أفريقيـــا هـــذه التي تفتـــرس في تأن ولكن فـــي ثبات كل الحضارات الأجنبية والمعادية لروحها...

منـــذ الفجر، عندمـــا، هناك بعيدا، يرســـل جبـــل الأوراس ومضاته الشـــفيفة، تخرج ياســـمينة من كوخها المتواضع متجهة صوب الســـهل تدفع قطيعها الصغير من الماعز الأســـود والغنم الضارب إلى الرمادي لونه.

من الاعتيادي أن تأخذه إلى وهد متعرج لواد بعيد عن الدوار. هنـــاك يتجمع رعاة صغـــار القبيلة. غير أن ياســـمينة كانت تفضل العزلة، فلا تشارك الأطفال الآخرين ألعابهم.

كانت تقضي كل أيامها، في الصمت المتوعد للســـهل بلا هم، بلا تفكير، متتبعة أحلاما غامضـــة، غير محددة، يتعذر التعبير عنها بكل اللغات الإنسانية.

أحيانا، كي ترفه عن نفســـها تلجأ إلى قطف بعض الزهيرات الغريبة التي أبقت عليها الشمس في عمق الوادي الناشف، وهي تدندن أناشيد عربية.

والد ياسمينة، الحاج سالم، أصبح عجوزا مقعدا، أمها حبيبة وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها لم تعد إلا مجرد مومياء هرمة، بسبب اعتكافها على الأعمال الشاقة للكوخ وحقل الشعير الصغير.

لياســـمينة أخوان يكبرانها ســـنا، متطوعان كلاهما في فرقة

الصبائحيين، وقد أُرسلا كلاهما بعيدا جدا، في الصحراء.
أختها الكبرى، فاطمة، متزوجة وتقطن بالدوار الرئيسي لأولاد مريم. فلم يبق في الكوخ غير الأطفال الصغار وياسمينة، أكبرهم والتي تبلغ من العمر أربعة عشر ربيعا.

هكذا، من فجر ساطع في أصيل كئيب، كانت الصغيرة ياسمينة ترقب مرور ربيع آخر، لا يختلف كثيرا عن سابقيه، والتي اختلطت بذاكرتها.

في أحد المساءات، في مستهل فصل الصيف، كانت ياسمينة عائدة بقطيعها، صاعدة باتجاه تيمقاد المضيئة بآخر أشعة الشمس عند غروبها، حتى السهل كان يشع أيضا، في ذرورية وردية وفي سحنة غاية في الرقة... وياسمينة عائدة وهي تردد أغنية صحراوية حزينة، كانت قد تعلمتها من أخيها سليمان الذي عاد في إجازة، هذه سنة مرت، أغنية تحبها كثيرا:

يا بنت قسنطينة
واش جيت هنا تعملي
أنت يا اللي ماراك بنت بلادي
أنت اللي ما خلقت باش تعيشي بين الكثبان
يا بنت قسنطينة
جيتٍ واسلبتٍ فؤادي
واديتيه معاكً
حلفت بالله العالي تعودي
لكن كي ترجعي لبلاد الصحراء
كي ترجعي للوادي

راكي ما تلقانيش في دار الورود

حوسي علي في دار الخلود

ورويــدا رويدا تحلــق الأغنية الحزينة الشــاكية في الفضاء اللامحدود... ورويدا رويدا تخبو الشمس الساحرة على السهل.

كانــت هادئــة للغاية، الــروح الصغيــرة الوحيدة الســاذجة لياســمينة... هادئة وعذبة كتلك البحيــرات الصغيرة الصافية والتي تتركها الأمطار للربيع للحظة في المروج الأفريقية السريعة الزوال، وحيث لا شــيء ينعكس غير اللازورد السرمدي لسماء بلا سحاب...

حين رجعت ياســمينة إلى الــدار، أخبرتها أمها بأنه ســيتم تزويجها إلى محمد لعور، نادل بباتنة.

بكت ياســمينة أولا لأن محمد لعور كان أعور وذميما، وثانيا لأن هذا الزواج جاء مفاجئا ولم يكن في الحسبان.

ثم هــدأت وابتسمت، لأن ذلــك ما كتــب لها. ومرت الأيــام؛ لم تعد ياسمينة تذهب إلى المرعى. كانت تخيط بيديها الصغيرتين غير البارعتين جهاز العروس المتواضع لخطيبة بدوية.

لم تفكر أي واحدة من نساء الدوار في أن تسألها ما إذا كانت ســعيدة بهذه الزيجة. أعطيت للعور كما كان يمكن أن تعطى لأي مســلم آخر. هكذا كان نظام الأشــياء، لم يكن هناك أي داع لأن تكون سعيدة فوق العادة ولا أن تكون متألمة كذلك.

بل كانت ياســمينة تعلم أن قدرها ربما سيكون أحسن بكثير من قدر الأخريات من نساء قبيلتها، إذ إنها ستقطن المدينة، ولن يكون لها إلا الاعتناء بأسرتها وتربية أولادها مثل المغاربة.

وحدهــم هم الأطفــال الذين كانوا يغيظونهــا أحيانا رافعين أصواتهــم: «مرت لعــور! – زوجة الأعور»؛ ولهــذا كانت تتجنب الذهاب عند هبوط الليــل، إلى الوادي قصد جلب الماء مع بقية النساء. هناك بالفعل نافورة في ساحة برج التفتيش، لكن الحارس الرومي موظف من طرف الفنون الجميلة لم يكن يســمح لأفراد القبيلة بغرف المياه الصافيــة العذبة لتلك النافورة. وعليه كانوا مرغمين على الشــرب من المياه المالحة للوادى والتي كانت صبح مســاء تنداس من طرف قطعان الماشــية. ومن هنا جاء المظهر المرضي لأفراد القبيلة المصابين دوما بأنواع الحمى الخبيثة.

وجاء الأعور في أحد الأيام يخبر أبا ياســمينة بأنه لن يتمكن قبل الخريف من إتمام مصاريف الزواج ودفع مهر الفتاة.

كانت ياسمينة قد انتهت من إعداد جهاز عرسها، وكان أخوها الصغير أحمد، الذي خلفها في المرعى، قد سقط طريح الفراش، مما جعلها تســتعيد وظيفتها كراعية، وتستعيد رحلاتها الطويلة عبر السهول.

حيث كانت تلاحق أحلامهــا الغامضة؛ أحلام عذراء بدائية، والتي لم يغير اقتراب الزواج قدر قلامة في سلوكها.

لم تكن تتمنى أو تبتغي شــيئا. كانت في حالة لاشــعور، وإذن سعيدة.

وكان وقتــذاك بباتنة ملازم أول شــاب، منتــدب في المكتب العربي، قادم حديثا من فرنسا، كان قد طلب المجيء إلى الجزائر، لأنه سئم حياة الثكنة التي قضاها مدة سنتين، بسان سير. كان ذا روح مغامرة وحالمة.

وبسرعة أصبح صيادا بباتنة، وله رحلات طويلة عبر الريف الجزائري اللاذع والذي سحره سحرا استثنائيا منذ البداية.

وحيدا كان ينطلق فجر كل يوم أحد، مقتفيا بمغامرة طرق السهل المتحفرة وأحيانا دروب الجبل الضيقة الشاقة.

وفي أحد الأيام، وقد أنهكه حر الهاجرة، دفع بفرسه نحو الوادي الضيق الطويل المتوحش حيث كانت ياسمينة ترعى قطيعها.

جالسة على حجر، تحت ظل صخرة صهباء، حيث تنمو أشجار العرعر الفواحة، كانت ياسمينة في سهو تلعب بعساليج خضراء وتدندن أغنية بدوية حزينة حيث كما في الحياة يتاخم الحب الموت.

كان الضابط مرهقا وقد راقته شعرية المكان المتوحشة.

وحين استقر في خط الظل كي يحمي فرسه من حر الشمس، اقترب من ياسمينة وهو لا يعرف ولو كلمة بالعربية قال لها بالفرنسية:

أوَيوجد ماء، ها هنا؟

ودون أن تجيب، نهضت ياسمينة ومضت، جزعة، فارة تقريبا.

لم أنت خائفة مني؟ لن أمسَّك بسوء، قال وقد استأنس بهذا اللقاء.

ولكنها فرت من عدو عرقها المهزوم وابتعدت.

وتتبعها الضابط طويلا بنظراته.

بدت له ياسمينة رشيقة وهيفاء تحت أسمالها الزرقاء، بمحياها المسمر ذي الصفاء البيضاوي، حيث تتلألأ في

إبهام خفي العيون الكبيرة السوداء للجنس البربري، بتعبيرها الدكين الحزين، وهي تناقض نافية الانعطاف الشبقي والطفولي في آن واحد للشفاه المخضبة بلون الدم، والسميكة قليلا. تحيط بهذا الوجه الفاتن حلقتان حديديتان ثقيلتان، علقتا في شحمة الأذنين الوضاحتين. وعلى الجبين، في الوسط بالضبط، وشم الصليب البربري خط بالأزرق، رمز غير معروف، وغير معلل عند هؤلاء الأقوام أهل هذه الأرض والذين لم يعتنقوا المسيحية، والذين دخلهم الإسلام وهم في كامل وحشيتهم ووثنيتهم ليغمرهم بنوره الكبير المترع بالإيمان والأمل.

على رأسها ذي الشعر الثقيل الصوفي الشديد السواد، كانت ياسمينة تضع منديلا بسيطا أحمر مطويا في شكل شريط منفرج مستو.

كل شيء فيها كان مطبوعا بسحر يكاد يكون صوفيا، والذي لم يستطع الملازم الأول جاك أن يعرف تفسيرا لطبيعته.

مكث طويلا هناك، جالسا على الصخرة التي غادرتها ياسمينة، كان يفكر في ياسمينة وفي كل جنسها.

أفريقيا هذه التي جاءها متطوعا بدت له مرة أخرى كعالم خيالي تقريبا، مجهولة تماما، وغاص به الشعب العربي بكل مظاهر طبعه الخارجية في ذهول عميق. إذ إن عدم اختلاطه شبه الكلي برفقائه، جعله يجهل إعادة الأكليشيهات السائدة في الجزائر والتي كانت تحمل وبوضوح العدائية قبليا لكل ما هو عربي وإسلامي.

لـم يزل تحت وقع الفرحـة الكبرى، ونشـوة القدوم الحادة، وبشهوانية استسلم لها.

ينحدر جاك من عائلة نبيلة أردانية، تربى على صرامة معهد ديني في الريف أكسـبته عبر سنواته كسـان سيري روح جبلي، منغلق نسـبيا على «روح العصر»، ميال للتمرد والتهكم، شكاك، لا يرجـع عن رأيه، وهذا ما يأخذه بسـرعة إلـى كل التداعيات المعنوية.

إذن كان يعرف كيف يرى ويفسـر الأشـياء بنفسـه، وينحاز بصدق إلى انطباعاته الخاصة.

حول الجزائر، لـم يكن يعرف إلا الملحمـة الرائعة للاجتياح والدفاع، البطولة المبذولة، باسـتمرار من هنا وهناك على مدار ثلاثين سنة.

غيـر أنـه كان ذكيا وغير ميال للبوح والصراحة مما أكسـبه قدرة على تحليل أحاسيسه، وترتيب أفكاره.

هكـذا، وفي يـوم الأحد التالي، وهو يرى نفسـه يأخذ ثانية طريـق تيمقاد، كان ينتابه إحسـاس واضح بأنـه لم يأخذ هذا الطريق إلا لرؤية البدوية الصغيرة مرة أخرى.

ولأنه بعد لم يـزل صافيا ونبيلا، لم يحاول البتة أن يراوغ أو يزيـف مع ضميره. كان يعلم أنه لم يسـتطع أن يقاوم رغبته في شراء حبات حلوى، من أجل ربط تعارف مع فتاته الصغيرة والتي أسـره ظرفها الغريب بطريقة لا تقاوم، والـذي أمضى الأسـبوع لا يفكر في شيء سواه.

... والآن ذاهب منذ الفجر عبر طريق لمباز الجميل، يستحث

حصانه، مأخوذ بلهفة أدهشته هو ذاته، لم يكن ذلك في الحقيقة إلا فـــراغ فؤاده الخـــارج من فوره مـــن دائرة الغمـــوض البهيج للمراهقة، حياته المنعزلة بعيدا عن مســـقط رأســـه، شبه عذرية أفكارها التي لم تلطخ نصاعتها دعارة باريس، لم يكن ذلك سوى الفراغ الرهيب الذي كان يدفعه نحو المجهول المريك، والذي بدأ يستشفه من خلال الخيوط الأولى لهذه المغامرة البدوية.

... أخيـــرا ها هو يتوغل فـــي العنق الضيـــق العميق للوادي الناشف.

هنـــا وهناك، علـــى الاكفهرار الرمادي لأشـــواك الغابة يلقي قطيع من الماعز بقعة ســـوداء بجانب أخـــرى بيضاء لقطيع من الغنم.

يبحث جاك في حالة من القلق تقريبا عن قطيع ياسمينة.

ما اســـمها يا ترى؟ كم عمرها، هل ترضـــى أن تكلمني، هذه المرة، أم ستفر كما في ذلك اليوم؟

كان جاك يسائل نفسه كل هذه الأسئلة في اضطراب متزايد. ثم كيف سيكلمها وهي لا تفهم كلمة من الفرنسية، وهو لا يعرف ولو لغة مزيج؟

وأخيـــرا، في الجهـــة المقفرة من الوادي يعثر على ياســـمينة، مســـتلقية على بطنها بين خرفانها، وهي تمســـك رأســـها بكلتا يديها.

وبمجرد أن رأته، نهضت، في عدائية من جديد.

متعودة على فظاظـــة واحتقار موظفي وعمـــال الآثار، كانت تمقت كل ما هو مسيحي.

لكن جاك كان يبتسم، ولم يكن يبدو عليه أنه يريد بها سوءا. بل كانت ترى أنه شاب ووسيم جدا في بدلته البسيطة من الكتان الأبيض.

بجانبها قربة صغيرة معلقة بين ثلاثة أوتاد في شكل حزمة.

طلب منها جاك أن يشرب بالإشارة، ومن دون أن تجيب أشارت ببنانها إلى القربة.

شرب. ثم قدم لها حفنة من قطع الحلوى الوردية. من دون أن تتجرأ على مد يدها قالت في خجل، تصحبه نصف ابتسامة وهي ترفع عينيها لأول مرة في وجه الرومي:

واش نوا، ما هذا؟

إنها لذيذة، رد ضاحكا من جهلها، لكنه كان في الوقت نفسه سعيدا لأن

الجليد ذاب أخيرا.

قضمت قطعة من الحلوى ثم فجأة وبنبرة فظة قليلا قالت:

شكرا!

لا،لا، خذيها كلها!

شكرا! شكرا! سيدي! شكرا!

- ما اسمك؟

لم تفهم لمدة، وأخيرا ولأنه راح يذكر كل أسماء النساء العربية التي يعرفها، ضحكت وقالت:

- سْمينة (ياسمينة).

حينها، أراد أن يجلسها إلى جانبه لمواصلة الحديث. غير أنها - وقد أصابها هلع مفاجئ - فرت مسرعة.

في كل أسبوع، حين يقترب يوم الأحد، يحدث جاك نفسه، بأن ما يقوم به خطأ جسيم، وأن عليه أن يترك هذا الكائن البريء في سلام، فكل شيء يفرق بينهما ولا يمكنه إلا أن يجره في كل حال إلى ضفة العذاب... لكنه ما عاد حرا في الذهاب إلى تيمقاد أو البقاء بباتنة ويذهب...

لم يبق إلا القليل، وياسمينة لم تعد تخشى من جاك. في كل مرة كانت تجيء من نفسها لتجلس بجنب الضابط، وهي تحاول أن تفهمه أشياء كثيرا ما كانت تغيب عنه معانيها رغم مجهودات الفتاة. ولما تدرك أنها لن تفلح في إفهامه، تطلق عنان ضحكتها... وحينئذ، تسفر ضحكة تلك الحنجرة التي تقلب رأسها إلى الوراء عن أسنان حليبية البياض، مما يبعث في نفس جاك إحساسا بالرغبة.

في المدينة، كان جاك يبذل قصارى جهده لتعلم اللغة الجزائرية... وكانت حماسته تثير ضحك رفقائه الذين يتهكمون قائلين: «لا بد أن هناك امرأة عربية وراء كل هذا».

جاك يحب الآن ياسمينة بجنون، بكل العنفوان الطافح للحب الأول، لرجل يتسم بالشهوانية والحلم في الوقت نفسه، رجل يمتزج عنده حب الجسد بالروح، ويضفي عليه شكل حنان حقيقي...

بيد أن ما يحبه جاك في ياسمينة، على جهله بالروح البدوية، هو ذاك الكائن الخيالي تماما، والخارج من مخيلته، وغير المشابه للواقع والحقيقة تماما.

مبتسمة، مع ظل كآبة في نظراتها، كانت ياسمينة تستمع إلى جاك وهو ينشـــد بتهور وبلا مهارة مرة أخرى وكل عشـقه الذي ما عاد يحاول كبح جماحه.

مســـتحيل، قالت وفـــي صوتها نبرة حزن كئيبـــة. أنت رومي، كافر، وأنا مســـلمة. تعلـــم هذا حرام عندنا، أن تتزوج المســـلمة مسيحيا أو يهوديا؛ ومع ذلك أنت وسيم وطيب. أحبك...

في أحد الأيام بكل ســـذاجة أخذت يـــده وقالت، وفي عينيها نظرة حنون: أســـلم...إنه بسيط جدا! ارفع يدك اليمنى، هكذا، وقل معي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ببطء، متخذا الأمر لعبة بســـيطة، ومـــن أجل إرضائها، أعاد تلك الكلمات الرخيمة الجليلـــة والتي، يكفي أن تنطق بإخلاص وصدق كي تربطك نهائيا بالإســـلام... لكن ياسمينة لم تكن تعلم أنـــه يمكن أن نقول هـــذه الكلمات من دون أن نؤمـــن بها، كانت تعتقد أن ذكر كلمات الشـــهادتين، والمجاهرة بالإيمان وحدهما، يجعلان من جاك الرومي مؤمنا... وجاك، جاهلا بالأفكار الفجة والبدائية التي يحملها الشـــعب الأمي عن الإسلام، لم يكن يعلم ويقدر مدى وقيمة ما فعل.

في ذلك اليوم، وعند المغادرة وبعفوية وضحكة بهيجة، أعطته قبلة، الأولى... كانت بالنســـبة إلى جاك النشوة الكبرى والثمالة السرمدية.

ومنـــذ ذلك الوقـــت، كلما كان غير مشـــغول، تحـــرر لبعض الساعات، وينطلق خافق القلب، مسرعا باتجاه تيمقاد.

لـــم يعد جاك البتة روميا أو كافرا بالنســـبة إلى ياســـمينة،

لقد شهد بالوحدانية المطلقة لله، وبرسالة نبيه. وفي أحد الأيام وبكل بساطة وبكل العشق المفعم بالحيوية التي يتمتع بها جنسها، سلمت نفسها...

وعاشا لحظة فناء لا توصف، ليستفيقا بعدها وقد استنارت الروح بنور جديد، كأنهما خرجا من فورهما من عوالم الظلام.

... لقد غدا جاك الآن بمقدرته أن يهمس لياسمينة بكل الأشياء الرقيقة أو المؤلمة المترعة بها روحه، بقدر تطوره في اللغة العربية الذي كان سريعا... أحيانا كان يتوسلها أن تغني. حينئذ، وهو مستلق بجنب ياسمينة، يضع رأسه على ركبتيها، مغمض العينين، ويغيب راحلا عبر أحلام لذيذة، غامضة.

منذ فترة، كانت تراوده فكرة غريبة وعلى الرغم من علمه بصبيانيتها واستحالة تحققها، كان يستسلم لها، لما كان يجد فيها من متعة غريبة... أن يترك كل شيء، أن يتخلى عن عائلته، في فرنسا، أن يظل بأفريقيا ليعيش إلى الأبد مع ياسمينة... وحتى الاستقالة والرحيل معها أبدا وتحت البرنوس والعمامة، ليعيش حياة وئيدة، خلي البال في أحد قصور الجنوب... حين يكون جاك بعيدا عن ياسمينة، يسترد كل وعيه، ويبتسم من تلك التصرفات الصبيانية البئيسة... لكنه بمجرد أن يجد نفسه إلى جوارها، يستسلم إلى خنوع ذهني ذي رقة لا توصف. كان يأخذها بين ذراعيه، يغوص بنظراته في ظل عينيها، ويعيد إلى ما لا نهاية هذه الكلمة العربية الرقيقة جدا والمفعمة بالمحبة والحنان:

- لعزيزة! لعزيزة! لعزيزة!

لم تفكر ياسمينة قط في مآل حبها هذا لجاك. كانت تعلم أن كثيرات من بني جنســها لهن عشــاق، ويخفين ذلك بعناية شــديدة على أهاليهن، وأنه عموما مــا تنتهي هذه العلاقات بالزواج.

كانــت تعيش اللحظة، ســعيدة، بكل بســاطة فقط، من دون تفكير ومن دون أي رغبة أخرى عدا استمرار سعادتها إلى الأبد.

أما جاك فكان يرى بوضوح أن حبهما لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال أبد الدهر. لأنه يدرك اســتحالة زواج بينه – هو وله أســرة هناك بفرنسا – وبينها هي هذه البدوية الصـغيرة، والتي لا يمكن أن يفكر حتى في نقلها إلى محيط آخر، إلى أرض بعيدة وغريبة عنها.

لقد أخبرته بأنه ســيتم تزويجها إلــى قهواجي بالمدينة، في نهاية الخريف.

ولكن كم كانت بعيدة نهاية الخريف.

جاك أيضا كان يستسلم إلى نشوة اللحظة...

حين يريدون تزويجي بالأعور ســتأخذني وتخبئني في مكان ما في الجبل، حيث الأشجار الكبيرة المعمرة أكثر من كل الشيوخ الكبــار، وحيث الماء المنعش العذب الرقــراق تحت الظل. وأيضا حيث العصافير ذوات الريش الأحمر والأخضر والأصفر تغني...

«أريد أن أسمعها وأنام تحت الظل، أشرب من الماء العذب... ســتخبئني في الجبل وســتأتي لرؤيتي كل يوم... سأتعلم الغناء مثل العصافير، وســأغني لك. ثم سأعلمها اسمك كي ترده لي حين تغيب».

كانت ياســمينة أحيانا تحدثه على هــذا النحو، وفي نظرتها الغريبة رزانة ووقار وتأجج...

لكن تقول إن عصافير جبل طوقور عصافير مســلمة... ولن تعرف تغريد اســمك الرومــي... لن تعرف مناداتك إلا باســم مسلم... وأنا من سيعطيكه كي أعلمها إياه... سأسميك مبروك، سيكون هذا فألا حسنا لنا.

... لقد أصبحت هذه اللغة العربية بالنسبة إلى جاك موسيقى عذبــة، لأنها كانت لغتها، وكل ما كان لها يســكره. جاك لم يعد يفكر، كان يحيا اللحظة فقط.

وكان سعيدا.

علم جاك يوما، أنه عين لمنصب آخر في الجنوب الوهراني.

قــرأ القرار المحتوم وأعاد القراءة من دون أن يفهم معنى آخر غيــر الرحيل ومغادرة ياســمينة، وتركها تتــزوج من ذاك النادل الأعور وعدم رؤيتها إلى الأبد.

لأيام وأيام، وهو يبحث في يأس عن أي مبرر يمنعه من السفر، تبادل مع أحد رفقائه... لكن دون جدوى.

وإلــى آخــر لحــظة، مــادام يبقي في نفســه بصيصا من أمل لم يشأ أن يخبر ياسمينة بالمصيبة التي ستعصف بهما.

وخلال لياليه الموسومة بالأرق والحمى، كان يتوصل إلى اتخاذ قــرارات نهائية: مرة يفكر في المجازفة بإطلاق العنان للفضيحة ومــا ينجر عنها من اختطاف وزواج. ومرة أخرى يفكر في تقديم اســتقالته، والتخلي عن كل شــيء من أجل ياسمينته، كي يصبح في الحقيقة مبروك ذاك الذي تحلم أن تصنعه منه... لكن فكرة

تتدخـــل دوما لإيقافه: هناك في الآردان أب عجوز وأم قد ابيض شـــعرها ســـيموتان حزنا لا محالة إذا قام ابنهما «الملازم الأول جاك الوسيم» كما ينادونه في البلد، بكل هذه الأشياء التي تراود ذهنه الملتهب، في الساعات البطيئة لليالي المضنية.

كانت ياســـمينة قد لاحظت الحزن والكآبـــة المتفاقمين لدى مبروكهـــا لكنه - غير قادر بعد على البـــوح لها بالحقيقة - كان يقول لها إن أمه العجوز مريضة هناك بفرنسا.

وياسمينة تحاول مواساته وتلقينه حتميتها الهادئة.

مكتوب، قالت، كلنا تحت رحمة الله وسنموت جميعا، كي نعود إليه... لا تبك: يا مبروك، هذا مكتوب.

«نعم، فكر بمرارة، سنضطر كلنا، اليوم أو غدا إلى فراق كل ما هو عزيز لدينا إلى الأبد... لماذا إذن يفرقنا القدر قبل الأوان هذا المكتوب الذي تتحدث عنه ونحن لم نزل على قيد الحياة كلانا؟»

أخيرا، أيام قليلة قبل اليـــوم المحتوم المحدد لانطلاقه، ذهب جاك إلى تيمقاد... وقلبه مترع بالمخاوف والكآبة، قول الحقيقة لياسمينة. غير أنه لم يكن يريد إطلاقا أن يخبرها بأن فراقهما سيكون على الأرجح، بل بالتأكيد، نهائيا...

لقد حدثها عن مهمة ستستغرق ثلاثة أو أربعة أشهر.

كان جاك ينتظر انفجارا ليأس شجي حزين...

لكنها، واقفة أمامه، لم تنبس ببنت شـــفة. لقد اســـتمرت في التأمـــل في وجهه، كمن يريد أن يقرأ في عمق أفكاره الدفينة... أربكته كثيرا تلك النظـــرة العميقة والمفرغة من كل تعبير، والتي بإمكانه تفهمها... يا إلهي! هل ستعتقد أنه يتركها طوعا؟

كيف السبيل لشرح الحقيقة، كيف يمكنه إقناعها بأنه لم يعد سيد نفسه؟ بالنسبة إليها، الضابط الفرنسي كائن قادر على كل شيء تقريبا، له الحرية المطلقة فيما يريد.

... واستمرت ياسمينة في النظر إلى جاك وجها لوجه، العينان في العينين، لم تزل محتفظة بالصمت...

لم يستطع تحمل تلك النظرة التي تتراءى مدينة له طويلا.

فطوقها بين ذراعيه:

يالعزيزة! لعزيزة! قال، أنت غاضبة مني! ألا ترين أن قلبي يتمزق ألما، وأني ما رحلت عنك أبدا، لو فقط كان بإمكاني البقاء..

قطبت حاجبيها الدقيقين الأسودين.

أنت تكذب! قالت، تكذب! أنت لم تعد تحب ياسمينة، خليلتك، امرأتك، خادمتك، تلك التي أخذت منها عذريتها. أنت من يريد الرحيل!... وتكذب مرة أخرى حين تقول إنك قريبا ستعود... لا لن تعود أبدا، أبدا، أبدا!

تراءت لجاك هذه الكلمة المكررة بعناد وبنبرة جلية تقريبا كأنها قرعة شبابه الجنائزية.

أبدا! أبدا! كان هناك في الصوت ذاته لهذه الكلمة شيء ما من الجزم والقطعية والمتانة والحتمية.

نعم، إنك راحل ... للتزوج من رومية هناك بفرنسا.

وتأججت شعلة كئيبة في العيون الكبيرة الصهباء للبدوية. وتملصت بخشونة تقريبا من حضن جاك، وبصقت على الأرض، باحتقار، في حركة نقمة شرسة.

كلاب وأولاد كلاب، كل الروم!

آه يا ياسمينة كم أنت متعسفة في حقي! أقسم لك إني توسلت لكل رفقائي الواحد تلو الآخر، كي يذهب أحدهم في مكاني... ولكنهم رفضوا.

آه أنت ترى بنفسك أن ضابطا حين يرفض الذهاب، فلن يذهب!

ولكن رفقائي، أنا من توسلهم للذهاب في مكاني، وهم لا يخضعون لسلطتي... أما أنا فأخضع لسلطة الجنرال، وسلطة وزارة الدفاع...

لكن ياسمينة - غير مصدقة - بقيت عدائية ومتصلبة.

وتأسف جاك على عدم حدوث انفجار اليأس الذي خشيه كثيرا في الطريق.

ومكثا طويلا هكذا، صامتين، منفصلين حاليا بهوة عميقة، بكل هذه الأشياء الأوروبية التي تسيطر باستبداد على حياته، والتي لا يمكن لياسمينة أن تفهمها أبدا.

وأخيرا بكى جاك، والقلب يطفح بالمرارة، ورأسه ملقى على ركبتي ياسمينة.

حين رأته في يأس يجهش بالبكاء، أدركت أنه كان صادقا... أمسكت بالرأس الغالية الحبيبة وشدتها إليها، باكية هي الأخرى، أخيرا.

مبروك! بؤبؤ العينين! نوري! يا بقعة صغيرة سوداء على القلب! لا تبك، سيدي! لا تذهب، يا سيدي. إذا كنت تريد الذهاب فسأرقد في طريقك وأموت. وإذن فستضطر إلى المرور

على جثة ياسمينتك. أو إذا كان لا بد من ذهابك، فخذني معك. سأكون أمتك. سأعتني ببيتك وحصانك... وإذا مرضت، أعطيك دم شرابيني كي تشفى ...أو أموت بدلا عنك. يا مبروك! يا سيدي خذني معك...

ولأنه بقي صامتا، منكسرا أمام استحالة ما تبتغيه، أردفت قائلة:

إذن، هيا، ضع ملابس عربية. لنهرب معا إلى الجبل، أو أبعد من ذلك إلى الصحراء، إلى بلاد الشعانبة والطوارق... ستصبح مسلما كلية، وستنسى فرنسا...

لا أستطيع... لا تطلبي مني المستحيل. لي والدان عجوزان هناك، بفرنسا، وسيموتان غما... آه! الله وحده يعلم كم أرغب في إبقائك إلى جانبي، إلى الأبد.

كان يحس بشفتيها الدافئتين وهما تلامسان بنعومة يديه، وفي غمرة تدفق دموعهما الممزوجة... أيقظت في نفسه تلك الملامسة أفكارا أخرى، وعاشا مرة أخرى لحظة أخرى من الغبطة العميقة جدا، والمطلقة تماما، لم يعرفا شبيها لها حتى في سعادتهما الهادئة.

ولكن أخيرا، دقت الساعة الجليلة للوداع... وداع أحدهما يعلم والآخر يستشعر بأنه الوداع الأبدي...

وضعا في قبلتهما الأخيرة، رحيق روحيهما...

مكثت ياسمينة في مكانها تستمع إلى رجع وقع حوافر حصان جاك طويلا... ولما لم تعد تسمعه، وعاد المكان إلى صمته الثقيل المعهود، ألقت البدوية الصغيرة بوجهها على الأرض واستغرقت في البكاء...

مر شـــهر على سفر جاك، وياســـمينة لم تزل تعيش نوعا من الخمود الحزين.

طـــوال اليوم، وحدها من الآن فصاعـــدا في واديها الموحش، تبقى ياسمينة مستلقية على الأرض، بلا حراك.

في عمـــق ذاتها، لا ثورة على المكتوب الذي تعودت عليه منذ نعومة أظافرها، وأن تسند إليه كل ما يحدث لها من خير أو شر على السواء... فقط ألم حاد ووجع مستمر، بلا مهادنة أو توقف، العذاب الفظ والجائر للكائنات غير الواعية، أطفال أو حيوانات، والذين لا يملكون حتى العزاء المر لفهم لماذا وكيف يتعذبون...

مثل كل البدو الرحل. مزيج مشـــوب حيث ضاع الدم الآسيوي وسط القبائل من السكان الأصليين، شاوية، بربر، الخ... لم تكن تعرف ياسمينة عن الإسلام إلا فكرة مبهمة. كانت تعرف – دون أن تدرك مع ذلك ماذا يعني – أن هناك إلها، واحدا، أحدا، أزليا، خلق كل شيء، وهو رب العالمين وأن محمدا رسوله وأن القرآن هو التعبير المكتوب للدين. كانت تعرف أيضا قراءة سورتين أو ثلاث من السور القصار والتي لا يجهلها أي مسلم.

لم تكن تعرف ياســـمينة من الفرنسيين إلا أولئك الذين كانوا يحرســـون الآثار ويعملون فـــي الحفريات.، وتعرف كم قاســـت منهم قبيلتها. واســـتنتجت من هنا أن كل الفرنسيين هم الأعداء اللـــدودون للعرب. بذل جاك كل جهوده كي يشـــرح لها أن هناك فرنســـيين لا يحقدون البتة على المســـلمين... لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أنه يكفي بعض من الموظفين الجهلاء الغلاظ الطبع كي يعيد فرنسا ممقوتة في عيون القرويين البسطاء الأميين.

كانت ياســمينة تسمع كل عرب الضواحي يشتكون من دفع الضرائب الباهظة، وكيف هم مرعوبون من الإدارة العسكرية، كيــف نهبت أموالهم... واســتنتجت أنه على الأغلب أن هؤلاء الفرنسيين الطيبين والإنسانيين والذين يتحدث عنهم جاك لم يقدموا إلى بلادها، وأنهم بقوا بعيدا، في مكان ما.

كان كل هــذا غامضا ولم يشــغل بالها علــى الإطلاق، في ذهنيتها البسيطة الجاهلة، حيث تنام بعمق القوى الحية.

لم تبدأ إعمال فكرها وعلى نحو غامض، إلا بعد أن أحبت.

فيمــا مضــى، حين كان جــاك يغادرها للعودة إلــى باتنة، تبقى متأملة. ماذا يفعل هناك؟ أين يعيش؟ هل يلتقي بنســاء أخريات، روميات يخرجن بلا حجاب ولهن فساتين من الحرير وقبعات كتلك التي يرتدينها النسوة اللائي يزرن الآثار؟ حينئذ اشتعلت موجة من الغيرة في قلبها.

ومنــذ أن غادر جاك إلى الجنوب الوهراني البعيد، تعذبت ياسمينة كثيرا، وبدأ يتأكد ذكاؤها.

أحيانا، في خلوتهــا الكئيبة تطلق العنان لصوتها لتردد كل الأغانــي الحزينة التي أحبها، فتغلبهــا الدموع، ليقطع نحيب شــجي تلك المقاطــع الغنائيــة، منادية مبروكهــا العزيز بكل الأســماء التي تعودت مناداته بهــا، مترجية إياه أن يعود، كأنه يسمعها.

لقد كانت أمية، لذا كان لا يمكن لجاك أن يراســلها، وهي لن تتجرأ أن تظهر رســائل المــلازم الأول لأي كان من أجل ترجمة معانيها.

وفي أحد أيام الأحد، بينما كانت غارقة في أحلامها الحزينة، شـاهدت فارسـا عربيا يمتطي حصانه الرمادي المندفع، قادما من جهـة باتنة. دفع الفارس الذي كان يرتدي بدلة الصبائحيين باتجاه الوادي. كان يبدو كأنه يبحث عن شـخص ما. وحين رأى الفتاه بادرها بالسؤال:

أولست أنت سمينة بنت الحاج سالم؟

من أنت، وكيف لك بمعرفتي؟

إذن، فأنت هي! أنا الشريف بن علي الشعانبي، ملازم أول في الجيش الفرنسي، وصديق لجاك. أولست أنت من كنت خليلة له؟

حاولت ياسـمينة الهرب وقد ذعرت حين رأت أن سرها الآن في حوزة مسـلم. لكن الضابط أمسـكها مـن معصمها، مرغما إياها على البقاء بالقوة.

أين تذهبين يا بنت الحرام، قطعت كل هذه المسافة لكي أراك، وتهربين.

كانت تحاول التملص ولكن من دون جدوى.

اتركني! اتركني! أنا لا أعرف أحدا، لم أكن خليلة لأحد!

وراح الشريف يقهقه.

بلى، كنت خليلته، يا بنت الحرام! وكنت سأقطع رأسك لولا أن جاك بمنزلة أخ لي. تعالي إلى هناك، في عمق الوادي لا يجب أن يرانا أحد. لك عندي رسالة من جاك وسأقرأها لك.

وبفرح غامر راحت تضرب بيديها.

أخبرها جاك في رسـالته بأنها يمكـن أن تثـق بالشـريف،

وأنه يمكنها إذا أصابها مكروه أن تتصل به. وأنه لا يفكر إلا فيها، وأنه لم يزل على العهد مخلصا ووفيا لها، لينهي خطابه بالقسم على أنه سيظل يحبها، ولن ينساها أبدا، وأنه سيعود يوما ليأخذها.

عهود جميلة، وحزم شباب محتوم، سيمحوه الزمن ويطمس معالمه سريعا كل الأشياء الأخرى!...

توسلت ياسمينة إلى الشريف أن يجيب جاك بأنها هي أيضا لم تزل تحبه، وستبقى مخلصة له مدى الحياة، وأنها ستبقى أمته الخاضعة المحبة، وأنها تتمنى أن تكون التراب الذي تحت قدميه.

ابتسم الشريف.

لو أحببت رجلا مسلما، قال، لتزوجك حسب الشرع، ولما كنت هنا الآن تذرفين الدموع...

مكتوب!

وامتطى الضابط صهوة جواده الرمادي، وانطلق مسرعا، مثيرا سحابة من الغبار.

كان جاك يخشى أن يثير انتباه سكان الدوار فأجل طويلا إرسال خطاب ثان إلى ياسمينة... طويلا إلى حد أنه حين أراد ذلك علم أن الشريف قد غادر إلى منصب آخر بالصحراء.

ورويدا، رويدا بعد اليأس الكبير للحظة الأولى تسللت السكينة إلى قلب جاك.

في القصر الوهراني حيث كان يعيش، تعرف جاك على رفقاء فرنسيين متميزين، ومثقفين جدا، وكان أحدهم يملك مكتبة ثرية. وراح ينهل من الكتب، ويدرس مسائل كانت إلى ذلك الحين غريبة مجهولة لديه... وتفتح عقله على آفاق جديدة...

وبعـــد مدة من الزمن غير منصبـــه. في جيريفي، تعرف على شابة إسبانية جميلة وأغرم بها.

وهكذا تباعدت الصورة الفاتنة لياسمينة في الأمواج البعيدة للذاكرة، حيث تسربل كل شـــيء بضباب كثيف لينتهي في اللجة العميقة للنسيان التام...

وأخيـــرا جاء محمد الأعور يبلغ بأنه فـــي إمكانه الآن تغطية مصاريف الزواج.

وحدد تاريخا قريبا جدا لإقامة حفل الزفاف.

واستسلمت ياسمينة بسلبية لقدرها...

وبغريزة المحب الوله، أحســـت ياســـمينة بـــأن جاك قد طوى صفحتها، فأصبح مذ ذاك الأمر بالنسبة إليها سيان.

وعلـــى الرغم من ذلك كانت تنتابها لحظات كآبة تعصر قلبها حين تذكر هذا الزواج، ولأنها تعرف عادات شعبها، لم يكن صعبا عليها أن تتوقع غضب زوجها، حين يكتشف أنها فقدت عذريتها.

كانت متأكدة أنها ستغدو زوجة القهواجي الأعور، حين فجأة شب نزاع مصالح بين الحاج سالم والأعور.

ولم تمض إلا أيام قليلة، حتى علمت ياســـمينة أنها ســـتعطى لرجل لم تره إلا مرة واحدة، صبائحي، عبدالقادر بن إسماعيل، شـــاب وســـيم، عرف عنه أنه شـــجاع وغير مطيـــع، لوحظ في الخدمة العسكرية سلبيا عدة مرات بسبب طبعه المتمرد، إلا أنه كان محترما ومحبوبا لدى رؤسائه لشجاعته وذكائه.

تزوج ياســـمينة عن حب، وقد وجدها جميلة، في تفتح ربيعها الخامس عشر... فقدم للحاج سالم مهرا أكبر من ذاك الذي وعد

به الأعور. وفوق هذا كله، فإن مصاهرة هذا الشاب المنحدر من عائلة من قالمة على الرغم من خصامه مع والديه بعد انخراطه في الجيش، أرضت كبرياء الشيخ .

واستمر العرس ثلاثة أيام، في الدوار أولا، ثم في المدينة.

في الدوار، أطلقت بعض الأعيرة النارية من البنادق، والكثير من المفرقعات، كما نظم سباق لجياد جائعة، تخللته صرخات عالية تحمس الرجال والجياد...

أما في المدينة فقد رقصت النسوة على أنغام البنادير والغايطة البدوية.

متشحة بعدة قمصان من قماش الموسلين الأبيض ذي الأردان الطويلة والواسعة الباغودية، وقفطان من المخمل الأزرق والمزين بشرائط ذهبية، وقندورة وردية من الحرير، وقد غطت شعرها بشاشية صغيرة مستدقة الرأس، كرزية وخضراء، مزينة بحلي ذهبية وفضية، كانت ياسمينة متربعة على عرش الحجرة، تجلس بين النسوة على الكرسي الوحيد بها، بينما كان الرجال يحتفلون بالخارج، في الشارع وعلى مقاعد المقاهي العربية المقابلة.

ومن النسوة علمت ياسمينة بمغادرة الشريف الشعانبي، وانطفأت جذوة الأمل الأخيرة التي كانت محتفظة بها: لن تعرف أبدا إذن شيئا عن جاكها.

في المساء، عندما أصبحت وحيدة مع عبدالقادرلم تستطع ياسمينة أن ترفع عينيها في عيني زوجها. مضطربة، تفكر في انفجار غضبه الوشيك وفي الفضيحة التي ستنجم عنه، هذا إذا لم يقتلها في الحين ذاته.

لـم تزل تحب روميبها، واستبدال الفارس العربي بالأعور لـم يبعث الفرحة إطلاقا في نفسها... على العكس، فقد كانت تعلم أن الأعور يقترب في طبعه من الطفل الطيب، بينما اشتهر عبدالقادر بأنه رجل عنيف وشرس...

... عندما علم بما لا تستطيع ياسمينة إخفاءه، اجتاح عبدالقادر غضب شديد، خاصة أنه كان مغرما بها. فشرع في ضربها بقسوة ووحشية ثم طلب منها أن تكشف له عن اسم عشيقها.

إنه ضابط... مسلم... منذ زمان طويل... وقد رحل...

مذعورة من تهديدات زوجها، فأعطته اسم الضابط الشعانبي: بما أنه غير موجود، ماذا يهم؟ لم ترد أن تبوح بالحقيقة، أن تعترف بأنها كانت عشيقة لفرنسي، فهذا لن يزيد إلا من فظاعة خطئها في عيني عبدالقادر...

لكن شغف الفارس العربي كان أقوى من غضبه... على كل حال، أكيد أن الضابط لم يتكلم وقد غادر الآن، ولن يكتشف سره أحد.

أبقى عبدالقادر على ياسمينة ببيته، لكنه أصبح سبب ذعر دوار الحاج سالم، حيث يذهب باستمرار للمطالبة بالمال من صهريه اللذين أصبحا يخافانه، وقد ندما على عدم تزويج ابنتهما لمحمد الأعور الهادئ الطيب.

في صمت وحزن كبيرين مستديمين، كانت ياسمينة تقضي كل أيامها في خياطة قمصان رديئة من الكتان، والتي تأخذها دوجة العمة العجوز للفارس إلى تاجر ميزابي.

هناك بالمنزل أيضا، أخت عبدالقادر، التي ستتزوج عن قريب بأحد رفقاء أخيها.

حين لا يكون الفارس سكرانا، يحدث أحيانا أن يحمل إلى زوجته بعض الهدايا، بعض الخرق لزينتها، وحتى الحلي، والفواكه والحلوى... يصرف كل ما في رصيده عليها. ولكن أحيانا أخرى، يدخل البيت سكرانا، وإذن فالويل لها منه.

واستمرت ياسمينة غير مبالية، لا بالمداعبة ولا بالضرب، قد التزمت الصمت، كانت تختنق بين الجدران الأربعة البيضاء للساحة المغاربية، حيث كانت مسجونة، وهي تتأسف بمرارة على تلك الرحابة وذاك البراح الطليق في مسقط رأسها. وتلك الآثار العظيمة المتوعدة، وواديها الموحش.

كان عبدالقادر يدرك أن زوجته لا تحبه، وهذا ما يغيظه.

فيتمادى في ضربها بكل وحشية.

ولكن، بمجرد أن يراها وهي تذرف دموعها، يحضنها بين ذراعيه، ويغرقها قبلا للأخذ بخاطرها.

وياسمينة بكل العناد، تستمر في حب روميها، مبروكها... أفكارها دوما تحلق باتجاه الجنوب الوهراني الذي لا تعرف عنه شيئا حيث تعتقد أنه لم يزل هناك.

كانت تتساءل في حزن عما إذا كان سيعود مبروك أم لا؟... فإذا ما خلت بنفسها، استسلمت للبكاء الصامت المسهب.

نسي جاك منذ زمان، حلم الحب ذاك الذي عاشه في فجر حياته، في سهل تيمقاد المقفر والذي لم يعمر إلا صيفا واحدا.

لم تمر سنة تقريبا على زواجه، حتى حكم على عبدالقادر

بعشر سنوات من الأشغال العمومية بسبب واقعة ضد رئيس سام خارج العمل...أخته تبعت زوجها إلى الصحراء أما العمة العجوز فقد توفيت.

وبقيت ياسمينة وحدها من دون مصدر رزق.

لم تشأ العودة إلى قبيلتها.

لقد احتفظت بذلك الطبع الداكن، الصامت الذي أصبح مميزا لها بعد رحيل جاك... لم تكن تريد أن يزوجوها مرة أخرى، وقد أصبحت الآن أرملة، تريد أن تبقى حرة لانتظار مبروكها.

ولا بد أن الزمن لديها أيضا، قد خفف عذاب القلب... لكنها لم تجد شيئا يعوضها عن حبه، واستمرت في حب الغياب، الذي منذ زمان لم تعد تتجرأ حتى على الحلم بعودته.

عندما نفدت الدريهمات الأخيرة، التي تركها لها عبدالقادر، هيأت أسمالها في رزمة وأعادت المفتاح إلى صاحبة المنزل.

وعندما أسدل الليل ستائره، غادرت باتجاه القرية السوداء، والتي لا تبعد عن باتنة إلا بخمسمائة متر - أرضية عراء حيث يوجد المسجد.

هذه القرية عبارة عن ركام من الأكواخ الخشبية أو من الطوب، أكواخ وسخة ومتهدمة، تقطنها مجموعة من العاهرات الزنجيات، والبدويات، والمغربيات، واليهوديات والمالطيات، يعشن هناك متراكمات بلا نظام، مع نماذج عديدة من الرجال المشبوهين، أكثريتهم من القوادين والمجرمين.

هناك مقاه مغاربية حيث ترقص النساء وتغني حتى العاشرة

ليلا، وحيث يدخن الحشيش بعد غلق الأبواب، طيلة الليل. ذلك هو مكان اللهو بالنسبة إلى عسكريي الحامية.

تعرفت ياسمينة في الوقت الذي بقيت فيه وحيدة على مغاربية تعيش في القرية السوداء برفقة زنجية من أولاد ريغ.

كانت زهرة وسمراء تعملان بماخور يديره رجل يدعى ألي فرانك، يدعي أنه مسلم وتونسي، غير أن اسمه يدل على أصل آخر، وعلاوة على ذلك، له سوابق عدلية وهو مراقب من طرف الشرطة.

وقد نصحت المغنيتان ياسمينة بالمجيء ومشاركتهما غرفتهما، ورسمتا لها بريق وامتيازات ظروف حياتهما المزعومة.

ولما أحست بأنها مهجورة ووحيدة تماما، التحقت بالصديقتين اللتين استقبلتاها بكل فرح.

في ذاك المساء، كان الظهور الأول لياسمينة بالمقهى كي تغني.

كان ذلك في قاعة كبيرة منخفضة، يملأها دخان السجائر، حيث أرضيتها المسكونة بالعقارب، مدروسة، وجدرانها المطلية بالجير كانت مغطاة بكتابات ورسوم دونها الزبائن، معظمها بذيء، مخل بالحياء حد البهيمية، وعلى طول الجدارين المتوازيين صفت طاولات ومقاعد، تاركة فضاء واسعا في الوسط. وهناك في العمق طاولة خشبية تستعمل كطاولة شرب، وضعت خلفها شبه مصطبة مغطاة بحصائر قديمة.

كانت الراقصات جالسات القرفصاء، عددهن سبع؛ ياسمينة، وصديقتاها، وبدوية تدعى حفصية، وعنابية تدعى عائشة ويهوديتان، سطيطرة وراحيل، هذه الأخيرة من الكاف، كانت

ترتدي البدلة التونسـيـة للراقصات، لابســة على موضة مصر: سروال عريض أبيض، وسترة حريرية صغيرة ذات ألوان، والشعر متموج، معقود فقط بشـريط أحمر، تنتعـل خفين صغيرين من الساتان بكعب عال.

كلهن يتزيـن بحلي ذهبية، يضعن حلقـات ثقيلة في آذانهن. مـا عدا البدوية والزنجية فقد كانتا ترتديان لباسـا صحراويا، ستار واسع أزرق داكن، مشبوك على الكتفين مكونا جلبابا. وعلى الرأس تسـريحة معقدة، متكونة من جدائـل كبيرة من الصوف الأحمر ملوية مع الشعر على الأصداغ، ومناديل منضدة، وجواهر معلقة على سلاسـل. وعندما تقف إحداهن للرقص في القاعة بين المتفرجين، تمكث الأخريـات على المصطبة يغنين، ويضربن بأيديهـن وبالدفـوف، بينما غلام يعزف على الشـبابة العربية، ويهودي يعزف برداءة على ضرب من الماندولين.

كانت أغانيهن، وحركات رقصن تتميز بصفاقة متأججة تلهب تدريجيا المتفرجين الكثر في ذاك المساء.

كانت الدعابات والإطراءات الفجة تهطل بالعربية، والفرنسية الممزوجتين قليلا أو كثيرا بالدارجة.

تبدين مكتنزة يا صبية! قال شاب مبتهج من بالفيل منفي في أفريقيـا، وهو يبدو في حالة إعجاب أمام ياسـمينة، حين نزلت بدورها إلى القاعة.

جدية وحزينة كعادتها، متسربلة باستسلامها وبحلمها، كانت ترقص لأولئك الرجال الذين سـتكون فريسـة لهم بمجرد غلق الماخور.

رآهـــا عريف مـــن الصبائحيـــين كان يعـــرف عبدالقادر بن إسماعيل فتعرف عليها من فوره.

انظروا! قال، ها هي زوجة عبدالقادر، الرجل بالسجن والمرأة بالحانة... الأمور تسير رغم كل شيء!

وكان هـــو من التحق بياســـمينة تلك الليلة فـــي المخدع الذي تستعمله كغرفة.

كان البـــدر يصَّاعد هناك، في الشـــرق، خلـــف القمم المعتمة لجبال الأوراس...

لمعان أزرق اللون ينزلق على الجدران والأشـــجار، ملقيا ظلالا عميقـــة على الأماكـــن المظلمة والزوايا المخبـــأة التي كانت تبدو كأنها فجاج عميقة.

وفي وســـط الأرضية العراء الجذبة والتـــي تلامس من جهة الســـور الرمادي للمدينة، وبوابة لمباز، والمنحدرات الأولى للجبل من جهة أخرى يقف المســـجد منزويا... بلا نسق وبلا أناقة في الضوء السحري للقمر، كان يبدو شفيفا تقريبا، غارقا في توهج غامض.

بجوار القرية السوداء، كانت تتردد أصوات الدفوف والشبابة العربيـــة في الأفق... وأمام مقهى ألي فرانك، تجلس امرأة على المقعد الخشـــبي، واضعة مرفقيها على الركبتين وتمسك رأسها بكلتـــا يديها، كانت ترقب المارة، في لامبـــالاة عميقة تقترب إلى الاشمئزاز والتقزز.

في غايـــة الهزال، بوجنتيها ذات الاحمـــرار المكفهر، وعينيها الغائرتـــين، اللامعتـــين بشـــكل غريب، وشـــفتيها المســـترقتين،

المشدودتين في ألم، كانت تبدو كأنها كبرت عشر سنين، البدوية الصغيرة الغضة، فاتنة آثار تيمقاد...

غير أنه، وعلــى الرغم من قناع الألــم ذاك، الذي كأنه قناع الاحتضـــار، خاصة بعد الحياة التي عاشـــتها علـــى مدار ثلاث سنوات، والتي لم تترك منها غير ظل للحزن جد عميق... وعلى الرغم من كل ذلك لم تزل تحتفظ بجمال مستبد وشفيف...

غالبـــا ما كان صدرها يهتز على وقع ســعال حاد ومســـتمر، ويلون بالأحمر منديلها...

الحـــزن، الخمرة والعوامل المرضية الضارة، التي كانت تعيش في وســـطها أتت على الصحة المتينة للبدويـــة الصغيرة المتعودة على الهواء النقي للريف.

خمس ســـنوات مرت على رحيل جاك إلى الجنوب الوهراني، وها هي تقلبات الحياة العســـكرية تعيده مـــرة أخرى إلى مدينة باتنة.

جاءها مع زوجته الشابة، الباريسية الرقيقة الجميلة؛ كانا قد تعارفـــا وتحابا في الكوت دازيـــر حيث كان جاك في مدينة نيس التي جاءها في عطلة نقاهة بعد مرض أصابه.

تذكر جاك ما تعود على تسميته الآن بالبدوية الحب البريء، حتى أنه كلم زوجته عنها... ولكن كل ذلك كان بعيدا، فهو أصبح يختلف كثيرا عن ذلك الضابط الشاب الذي كان...

كنـــت آنذاك مراهقا حالما ومتحمـــســـا. آه لو كنـــت تعرفـــين يا عزيزتي تلك الأفكار المثيرة للســـخرية والتي كنت أحملها! لقد كدت أن أتخلى عن كل شـــيء من أجل تلك البدوية المتوحشة...

لو كنت استسلمت لذاك الجنون، ترى ما كان سيحدث لي، الله يعلم وحده!

آه! كم يبدو له الآن سخيفا، ذاك الملازم الأول الصغير الصادق المتأجج الذي كان.

لم يفهم كيف كان الشكل الأول لأناه الواعية أفضل وأجمل من الشكل الثاني الذي اقترن بالعقل المعاصر، المغتر، الأناني والناقد الذي اخترقه شيئا فشيئا.

في تلك الحالة، في ذاك المساء وقد خرج مع زوجته التي لم تجد أي سحر في الشوارع الأربعة أو الخمسة المستقيمة للمدينة بادرها جاك قائلا:

تعالي، سأريك جنة الجنود... ولكن لا تتشددي كثيرا، لأن المشهد سيبدو لك أحيانا طبيعيا حد الفجاجة.

في طريقهما، التقيا بأحد أصدقاء جاك، برفقة زوجته أيضا. وراقت لهم فكرة الذهاب إلى القرية السوداء، فانطلقوا، وقد سبقهم جاك محاولا استطلاع الطريق، تاركا زوجته متشبثة بذراع صديقتها.

ولأنه مر من أمام مقهى ألي فرانك، قفزت ياسمينة وصاحت:

- مبروك! مبروك! أنت!

تعرف جاك أيضا على ياسمينة، فهذا الاسم وحده يكفيه لذلك. فاعترت قلبه برودة جليدية شديدة... لم يجد كلمة يرد بها على هذه التي أسعدتها عودته بهذا الشكل الجنوني.

لعن نفسه في السر أن خطرت بباله فكرة إحضار زوجته إلى هذا المكان... لن تترك فضيحة، إلا أتت بها هذه المرأة الضائعة

وسط غياهب الدعارة، حين تعلم أنه لا أمل يرجى منه!

فضـــل أن ينهـــي الأمر في حينه، وأن يضع حـــدا نهائيا لهذه المغامـــرة السـيئة الآن، هو الآن يتقن إتقانا شــبه تام هذه اللغة العربية التي تعلم على يديها فيما مضى أبجدياتها الأولى، وقال لها:

أصغي إلي... لا تعتمدي علي منذ الآن. كل شيء انتهى بيننا. أنا متزوج وأحب زوجتـــي. دعيني ولا تفكري أبدا في رؤيتي من جديد. انسيني، هذا أفضل لنا.

بقيـــت تنظر إليه... مشـــدوهة، جاحظة العينـــين، إذن، ذاك صحيح! وانطفأ آخر أمل يبقيها على صلة بالحياة،

لقد نســـيها. تزوج ويحب الروميـــة، زوجته!... وهي، هي من أحبتـــه حتى النخاع، لم يبـــق لها إلا أن ترقد في زاوية وتســـلم روحها مثل كلب منبوذ.

وتأججت ثورة بروحها الحالكة ضـد الظلم الوحشـــي الذي ما فتئ يضنيها.

وانتفضت فجأة، مجترئة، متوعدة.

لم إذن جئت تبحث عني بعمق الوادي، بدوارنا، أنا كنت أعيش في ســـلام مع ماعـــزي وأغـنامي؟ لم اتبعـتني؟ لـم وظـفت كـل ما عندك من حيلة وســـحر لغوايتي، وجرجرتي، وأخذ عذريتي؟ لماذا أعدت معي غدرا الكلمات التي تجعل مســـلما ناطقها؟ لماذا كذبت علي ووعدتني بأنك ســـتعود يوما وتأخذني إلى الأبد؟ آه! إنني مازلت أحتفظ مع تمائمي بالرسالة التي حملها إلي الضابط الشـــعانبي...! (وأخرجت ظرفا قديما، وقد تمزق واصفر لونه،

ملوحة به كسلاح، كدليل دامغ)... نعم لماذا، أيها الرومي، يا ابن الكلب، تجيء مرة أخرى في هذه الساعة، مع زوجتك الملعونة ثلاثا، لتحتقرني وتهزأ بي تابعا إياي حتى إلى هذا الماخور الذي رميتني به، وتركتني كي أموت فيه ؟

قطع نحيب وسعال أجش كهفي حديثها فرمت في وجه جاك منديلها الدامي.

خذ، أيها الذئب، اشرب دمي! اشرب وكن سعيدا، أيها السفاح!

كان جاك يتألم... خزي وأسف قد انتصبا أمام عينيه لكل هذا البؤس. ولكن ماذا في وسعه أن يفعل الآن؟ لقد اتسعت الهوة الآن أكثر من أي وقت مضى بينه وبين البدوية.

ومن أجل أن يسعدها، وأن يتخلص من المرأة الشقية إلى الأبد في الوقت ذاته، فكر أن قليلا من الذهب يكفي ... فقدم كل نقوده إلى ياسمينة:

خذي، قال... أنت فقيرة ومريضة، يجب أن تعالجي نفسك. خذي هذه النقود القليلة... والوداع.

وتلعثم، فجأة، خجلا مما تجرأ على فعله.

وتطلعت ياسمينة في وجهه للحظات، متسمرة في مكانها، معقودة اللسان، كما في الماضي، هناك، في بوادي تيمقاد الناشف، في ساعة الوداع المؤثرة الحزينة. ثم بغتة وبخشونة أمسكته من معصمه، ولوته ناثرة على الغبار القطع النقدية الصفراء.

كلب! نذل! كافر!

ومضى جاك مطأطئ الرأس، ليلتحق بالمجموعة غير بعيد هناك وراء الأكواخ...

وتهاوت ياسمينة على مقعدها، مهتزة بنحيب متشنج... أسرعت سمراء، الزنجية لسماع الضجة، وجمعت بعناية القطع الذهبية. احتضنت سمراء بذراعيها السوداوين عنق صديقتها.

سْمينة، أختي، روحي، كفي عن البكاء... كلهم هكذا، الروميون، الكلاب، أولاد الكلاب... ولكن بهذه النقود التي أعطاك سنشتري فساتين ومجوهرات وأدوية.. فقط لا تقولي شيئا لألي وإلا أخذت منا النقود.

ولكن لا شيء بإمكانه مواساة ياسمينة.

كفكفت دمعها، وفي حزن وصمت أخذت ثانية مكانها في وضعية الانتظار... انتظار من؟ انتظار ماذا؟

لم تعد ياسمينة تنتظر شيئا غير الموت، وقد استسلمت لقدرها.

مكتوب، لا مجال للشكوى والانتحاب. بكل بساطة، يجب انتظار النهاية.... كل شيء تهاوى فيها وحولها. لا شيء بمقدوره الآن أن يدغدغ قلبها، أن يسعده أو أن يحزنه.

غير أن ألمها كان عميقا... كانت تتألم أكثر لعلمها أن جاك لم يزل حيا يرزق وأنه قريب منها جدا... قريب وفي الوقت نفسه بعيد... بعيد!...

آه! كم تمنت أن تراه ميتا، راقدا هناك في مقبرة الفرنسيين، خلف باب قسنطينة.

لكان بمقدورها أن تعيش ثانية - لا شعوريا- ساعات الماضي تلك الغامرة بالوجد والسحر، ساعات النشوة والحب في وادى تيمقاد الناشف.

لكان بمقدورها أن تذوق طعم الفرحة العذبة المهيمنة، عوض الإحساس بهذا العذاب المروع الذي تعيشه الآن...

خاصة لو لم يحب امرأة أخرى، امرأة رومية!

كانت تشعر بأن هذا الألم الفظيع سيقتلها: حتى الآن، وحده الأمل المكابر في رؤية جاك، وحدها الإرادة العاتية للعيش من أجل رؤيته كانا يعطيانها قوة مزيفة لمقاومة السل الرئوي المدمر، السريع.

لم تعد ياسمينة سوى مجرد خرقة لحمية، مهجورة بلا مقاومة... إلا للمرض والموت. دفعة واحدة، انكسر فيها نابض الحياة.

لم تبق ذرة تمرد بروحها شبه المطفأة.

مكتوب، ولا شيء يقف أمام المكتوب.

في حوالى الساعة الحادية عشرة مر فارس صبائحي في إجازة، وتعجب أن رآها لم تزل هناك، الظهر مسنود إلى الجدار،اليدان متدليتان، والرأس متهدل.

هاي سْمينة !ماذا تفعلين هنا؟ أصعد؟

ولما لم تجب، قفل الجندي الوسيم راجعا.

حسنا! قال متعجبا. فيم تفكرين بنيتي ... أم أنك سكرانة؟

أمسكها من يدها وانحنى عليها...

وفي الحال، اعتدل المسلم ووجهه شاحب قليلا.

لاحول ولا قوة إلا بالله! قال

رحلت ياسمينة البدوية.

النقيب

كل شـــيء كان بالنسبة إليه كشفا وتجليا في هذه الجزائر... باعـــث اضطـــراب –قلق تقريبا – الســـماء في غايـــة الصفاء، الشـــمس في غاية التألق، الهواء – حيث يشـــبه نفســـا من كآبة حالمة – يبعث على التراخي واللذة البطيئة، وقار المجتمع المسربل بالأبيض الذي يمنعك من ولوج الروح، النبات شـــديد الخضرة، المبايـــن للأرض الرماديـــة أو المحمرة، المحجـــرة، ذات الجفاف الكئيب، والجدب الواضح... ثم شـــيء آخر يتعذر تحديده، لكنه مكـــدر ومثير، من حيث لا يدري، كل هذا شـــوش صفو أعماقه، وبجس فيها ينابيع إحساس لم تخطر له ببال قط.

بمجيئه هنـــا، بدافع الواجب، وبما أنـــه درس هذا الطب الذي يفتـــرض أن يعول أمه الضريرة، وأختيه الصغيرتين، وأخيه الصغير الهزيل، كما قضى حياته وكما اعتقد حتى الآن، لقد خضع للحاجة ببساطة، دون انجذاب ودون افتتان بهذا البلد الذي يجهل.

غير أنه ومنذ تعيينه، لم يرغب في أن يقرأ شـــيئا من دون أن يعرف عن هذا البلد حيث اســـتوجب عليـــه نقل حياته الصامتة والهادئة، وحلمه الحزين المحدود، دون محاولة للتعبير، أبدا.

ربما سيرى، مستقلا، وحده، دون الخضوع لأي تأثير كان.

مـــن المفروض أن ينصت إلى تحذيـــرات رفقائه الجدد الذين احتفوا به وحزر أنهم متهكمون، حماة، مستخفون بشبابه الغض، مهتمون خاصة بتأثيرهم وبإدهاشـــه... غير مكترث استمع إلى شـــكاواهم وانتقاداتهم: لا مجتمـــع، لا عمل، ضجـــر كئيـــب. بلـــد

بلا سحر، الجزائريون خشنو الطبع، مشغولو البال بالكسب فقط، والأهالي مثيرون للاشمئزاز، مزيفون، متوحشون، أدنى من أي انتقاد، مسخرة...

كل هذا لم يكن يثيره، ولم يخرج منه إلا بمعارف حول هؤلاء الرفقاء أنفسهم والذين سيعيش بينهم...

ثم وفي أحد الأيام، فجأة، - وهو ابن جبال الألب المشجرة والمخضوضرة، والآفاق المحدودة والجلية -يتوغل في السهل الكبير، المبهم والمتشابه على مد البصر، بلا مستويات أولى، تقريبا بلا شيء يستوقف النظر.

شعر في البدء بانزعاج، وحرج. كان يحس كأن كل ذلك المدى غير المتناهي، كل اللامحدود المستغلق من ذلك الأفق ينفذ إلى أعماقه ويتغلغل بداخله، يضني روحه، هي الأخرى كأنه يسربلها بغشاوة من ضباب وحزن غامض يتعذر وصفه. ثم يحس فجأة، مدى اتساع حلمه وامتداده، وهو يؤول إلى هدوء عارم، كما الصمت المطوق. واكتشف روعة هذا البلد، النور المنتصر بلا منازع، غامرا السهل والأرض المجذومة بالحياة، مبيدا الرتابة في كل لحظة... كان النور، روح هذه الأرض الحارة الشرسة فاتنا. وكاد يعشقه، لأنه بدا له واعيا، مستيقظا في ذلك التنوع المدهش الذي غمر عينيه.

عرف الخفة البهيجة، اللامبالاة الهادئة في العسجد والليلك الشفيف للصباحات... والتوتر، سحر ساعات الظهيرة الساطعة الأخاذ والثقيل إلى حد الشجن، حيث تبدو الأرض كأنها تتأوه تحت وقع لفح النور الملتهب... وحزن المساءات الذهبية والقرمزية

العجيــب، العذب كالزهد النهائي، وهي تهيأ للأســرار المتوعدة لليالي المظلمة الطافحة بالمجهول، أو المضيئة مثل فجر غامض، مغرقا الأشياء في ضباب أزرق.

وأحب السهل.

تــلال لا لون لها، متراكمة، متراصة، متموجة، مغيرة صبغتها في كل آن، خاضعة لكل تغيرات الضوء، لكن جامدة كأنها نائمة، تغط في حلم ســرمدي، محاصــرة القصر عديم الألوان، والذي تواصل قبابه الصغيرة العديدة ازدباءها الجم.

شــوارع صغيرة متعرجة، محاطــة بمنازل قديمة من الجص، مفصولة بخراب وتهدم، مــع ظل نحيف، أحيانا لنخلة تعلو على الأشــياء، ممتثلة هي الأخرى لســلطان الضوء، أماكن صغيرة، مؤدية إلى دروب صامتة، تنفتح فجأة، مخيبة للأمل على الرحابة الملتهبة للصحــراء... برج أبيض تماما، منعزل في الرمال، حيث يمكن من شرفته مشــاهدة التموج اللامتناهي للكثبان، وقد بدا في تجاويفها العميقة مخمل النخيل الأسود... هنا وهناك ركائز آبار بدائيــة، عارضة كبيرة متجهة صوب الســماء، وقد انحنت بواســطة حبل كأنها صنارة صياد عملاقة. وهناك، مهيمن على الكل في قمة الهضبة برج مربع ذو بياض ناصع يطوق الشفافية المحيطة بالمكان. يتلألأ وسط النهار الساطع، محتفظ في المساء بآخر الأشعة الحمراء للغروب: إنه منارة زاوية سيدي سالم.

فــي الضواحــي المحجوبة بالكثبــان، قرى معزولــة، حزينة وقديمة، والتي كانت أسماؤها ذات وقع موسيقي غريب: البياضة، فم السحوم، أولاد علاندة، بير عراير...

كان الإحســـاس الأول الموجع حد الشجن لجاك هو إحساسه بالســـجن بين كل هذا الرمل، جراء عزلتــه الكلية والتي قضاها علـــى مدار ثمانية أيام، والتي اعتقد أنه أدرك فحواها، وقد بدأ يتعلق بها...

كل هـــذا الفضـــاء الذي يفصله عن بســـكرة، حيث ترك آخر المناظر المعروفة، والمألوفة إلى حد ما لديه. كان يبدو له كل ذلك ساحرا، مستبدا، عدائيا إلى حد اليأس تقريبا...

نقيب، ضابطـــان برتبة ملازم أول مكلفان بشـــؤون الأهالي، ضابط من القناصين، وضابط صف من الفرســـان الصبائحيين، شـــيخ عربي، مومياء بالية في ثياب، هؤلاء هم رفقاؤه الجدد... بمجرد وصوله بينهم، اعترت قلبه برودة شـــديدة. كانوا لطفاء، متبرمين وبعيدين عنه، بعيدين جدا... ووجد نفســـه وحيدا على نحـــو مثير للرثاء، في خضم كآبـــة هذا البلد الذي أصبح يخيفه الآن. صامتا، مذعنـــا دوما في علاقته مع الرجال، من الانطباع الأول الغريزي الذي يحسه صادقا، وانطوى على نفسه. واعتبروه عبوســـا وتافها، الأشـــقر الباهت ذا العينين الزرقاوين، صاحب النظرات التي تبدو كأنها تتجه إلى الداخل.

ومـــا أتى على التفريـــق بينهم، هو إحساســـه للوهلة الأولى، بلطافتهم بســـبب عقلانيته المتطورة، إلى جانـــب تربيته المتأنقة والدقيقة.

درس بعنايـــة اللغـــة الأجـــش والرخيمة، والتي أحـــب نبرتها منـــذ الوهلة الأولى، وأدرك انســـجامها مع آفـــاق النار والأرض المتحجرة...

هكذا كان يحدث رجاله الذين ينهضون عند مروره، مستكينين لتحيته، عيونهم في الأرض، وقلوبهم موصدة في قسوة ونفور.

يجب على الأهالي، أيا كانوا، تحية كل ضابط، قال النقيب مالي، صلدا ومتأثرا بمهنة الصلابة مثل أو أكثر من رزقي التركي.

عليك ألا تقرب هؤلاء الأقوام منك أبدا، وأن تلزمهم حدودهم. الصرامة، بلا تخاذل... الوسيلة الوحيدة لإخضاعهم.

قاسيا، باردا، مذعنا بصورة عمياء، لأوامر مرؤوسيه، بلا أي سلوك عفوي دوما، سواء كان سلوكا طيبا أو قاسيا، كان النقيب مالي موضوعيا على الدوام. منذ خمس عشرة سنة وهو يعيش بين الأهالي، متجاهلين إياه، متجاهلا إياهم، دولاب محكم في آلة الهيمنة الكبيرة، كان يلزم معاونيه بالموضوعية نفسها، وبالبرودة الجليدية نفسها...

ثار جاك منذ الأيام الأولى، راغبا في أن يكون نفسه، وأن يتصرف حسب ضميره، الذي أدى به بسبب تدقيقه الوسواسي إلى عثرات، خيبات أمل، وحيرة مستمرة.

رفع النقيب كتفيه.

انظر، قال لمساعده، مصدر آخر للغم. الآخر (سابقه) يسكر ويسخر منا... وهذا جاء ليدخل تجديدات، ليغير كل شيء، ليطلق الأحكام وينتقد... أراهن أنه مشرب بأفكار إنسانية، اجتماعية، وغيرها... من النوع نفسه. لحسن الحظ أنه ليس إلا طبيبا وليس له أن يتدخل في الإدارة... ولكن هذا مزعج رغم ذلك... في النهاية، الآخر أفضل منه... أقل إزعاجا. لم يبق إلا أن يرسلوا لنا الصبيان! على الأقل لو كانوا جزائريين...

ومنذ ذاك لم يتوان النقيب في إظهار استنكاره المطلق للطبيب، صراحة، وبكل برودة.

أحزن ذلك جاك.

لو لم يخضع البتة لحكم الرجال، فسيتألم أكثر من حقدهم، وإلا من احتقارهم.

أكثر فأكثر، كان أكثر ما يشمئز منه في علاقته بالرجال، فظاظتهم واهتمامهم بأن يكونوا، يفكروا أو يتصرفوا ككل الناس، أن يحاكوا الآخرين، وفرض طريقة تفكيرهم، الموضوعية الضيقة على الكل.

كانت تدهشه على نحو بغيض، هذه اليد الموضوعة على حرية الآخر، وهذا التدخل في أفكاره وتصرفاته... غير سعيدين بكونهم منعدمين هم أنفسهم، كانوا يريدون إلغاء شخصيته، تقنين أفكاره، وتعطيل استقلالية أفعاله...

ورويدا رويدا، بدا يصاعد من دعة طبعه الأولى الخجولة بعض الشيء والتواقة للرقة، غضب أخرس، غل وتمرد. لماذا يقبل هو باختلاف الإنسان، لماذا يريد المناداة بالانبثاق الحر والخصب للفردانيات، وتعزيز تطورها التام، لماذا لا يملك أي رغبة في تشكيل الطبائع على صورته، وسجن الطاقات في الدروب التي يحلو له سلكها، ولماذا هذا التعصب، وهذا التحيز المستبد للرداءة؟

وبسرعة تكونت ثقافة عقله وطبعه في هذا المحيط الضيق جدا، حيث يشاهد كما في صورة مصغرة كل الفظاعات، التي فلتت منه في مواضع أخرى، وسط الزحام الأبقع المتحرك.

غيـــر أن الاضطراب الكبير الذي أحدثه في روحه بلا مرحلة انتقال اكتشـــاف هذا البلد المختلف عن بلده، بدأ يهدأ تدريجيا، ولكن بشـــكل ملموس، وحيث كان يحس بكدر شديد ومؤلم، وبدا يكتشف كنوزا من السلم الجليل ومن الحنين الخصب.

فـــي البدء لم يكن يريد أن يزور البلد الذي مكث فيه منعزلا على مدار ثمانية أشهر على الأقل، من طبع السائح لم يكن لديه لا الفضـــول ولا العجلة .كان يفضل أن يكتشـــف التفاصيل في هدوء، تدريجيا، وحســـب مصادفات الحياة والجولات اليومية، عن غيـــر قصد ولا هـــدف، ثم وبعـــد التراكمـــات التدريجية للانطباعات، بدأت بذهنه تتشـــكل الرؤية المجملة، وتتكشـــف وحدها تلقائيا.

وهكذا نظم حياته كي يتألم أقل ويفكر أكثر...

في اليوم التالي لوصوله، قصد المكتب العربي صباحا، لزيارة مرضى مدنيين من الأهالي، مصطحبا معه شـــابا من القناصة، ذا جمال أنثوي، وعيون سحيقة ظليلة وذابلة كترجمان. وممرضا برتبة عريف، ذا وجه أحمر مبتهج، ساخرا قليلا لمساعدته.

في الســـاحة الضيقة والطويلة، كان حوالى عشرين نفرا من الأهالـــي ينتظرون، جالســـين القرفصاء فـــي وضعيات صبورة، متأنية.

وعندما ظهر جاك، وقـف المرضـــى، بعضـهم بعـناء، وحيوُّه بلا خبرة تحية عسكرية.

النساء، خمس أو ســـت، رفعن أيديهن المفتوحة بفظاظة فوق رؤوسهن المنحنية، وكأنهن يلتمسن الصفح.

لاحظ بوضوح الخوف والحذر تقريبا في عيون أولئك الناس.

مجموعة الرجال يرتدون برانس باهتة، وجوههم سمراء، ذات سمات شديدة، وعيون متقدة محمية بستائر وسخة وممزقة...

أمـــا وجوه النســـاء فكانت أكثر اســمرارا، متغضنة، العجائز درداء، ببنـــاء ثقيل من ضفائر شـــعر أبيــض محمر بالحناء، من ضفائـــر الصوف الأحمر، والأطواق والمناديل... أما الفتيات فقد كانت وجوههن مغرية وموصدة، ذات ســمات قوية نســبيا ولكن نقية ومتجانســـة، في سحنة داكنة، كانت عيونهن كبيرة مندهشة ووجلـــة... الكل ملفوف في ملحفة زرقاء داكنة، ســـوداء تقريبا، مثنية على الطراز القديم.

بانتبـــاه، مصححا بعذوبة نظراته، وبســـاطة أســـلوبه الودود والمطمئن، الخشونة التي يعطيها الترجمان الشاب لاستفهاماته، كان جاك يفحص مرضاه، مشـــفقا أمام كل ذلك البؤس، كل تلك المعانـــاة التي ينبغي عليه تخفيفها، كانت الزيارة طويلة... لاحظ التعجب التهكمي للعريف، وعدم اكتراث الشاب الترجمان.

غير أنه، وعلى الرغم من ذلك الوضع وهذا التصرف الجديد بالنسبة إليهم من طرف الطبيب، لم ينفتح الأهالي ولم يشرحوا له صدورهم، قرون من الحذر والشك والعبودية تقف بينهم.

وفي طريـــق مغادرته، أحس جاك بأن المهمـــة التي ارتضاها لنفسه جسيمة، ومرهقة... لكن لم يستسلم لليأس: لو تتراخى كل الأيدي أمام المهام المناطة بها، لو لا أحد يعطي القدوة فسينتصر الشـــر دوما مستعصيا. ثم إن جاك يؤمن بالقوة الحية للحقيقة، وبفضيلة العمل المخلصة للبشر.

في الحي، في المستشفى كان يقابل الوجوه المنغلقة والقاسية نفسها، والتي تشبه وصفته الطبية والخارجة عن الإنسانية. أذهله الفقر المدقع في حياتهم: الخدمة الميكانيكية، مجموعة من الحركات والإشارات، هي نفسها تتكرر على الدوام من دون تغيير، بسبب الخوف أولا، ثم بسبب التعود ثانيا. وعدا هذا لم يتركوا لهم من الحياة الحقيقية، الشخصية غير شيئين: اختبال الكحول والمتعة الآنية، وبأثمان زهيدة في الدار العمومية، هناك في ذلك النطاق الضيق، كانت تنقضي سنوات حياتهم النشطة...

... ثماني مومسات، باليات، ذاويات، يجلسن على المقاعد الحجرية، أمام شبه حانة... ملابس ذات ألوان فاتحة، ممزقة، تعلوها بقع، متسخة، لكنها معطرة للغاية. أجساد مترهلة نديبة، منخورة من شدة ما عجنت بأياد عنيفة فوق تخوت الصوف الوسخة، ومن أجل بعض الفلسات عناق منهك في غالب الأحيان، يؤتى من أجل الحاجة، بلا أي صدى يذكر، زجاجات من سوائل قوية، تزود بحرارة مستعارة، متعة مزيفة لم يجدوها في أعماقهم، هكذا كان ركن الحياة الشخصية الذي يلجأ إليه أولئك الرجال الذين من أجل أمن الخبز والفراش، يبيعون حريتهم، آخر الحريات الإنسانية: أن نذهب أينما نريد، واختيار الهاوية حيث نتكبد عذاب الجوع، ونهش البرد...

واعتقد جاك، في سذاجة أنه يشاركهم وجدانيا معاناتهم، ناسبا لهم الأحاسيس التي تمده بها حياتهم... واعتقد أن احتجاجهم المستمر ضد أقدارهم، إنما هو نتيجة لوضعيتهم

المزرية... ثم بعدها أصيب باندهاش واضطراب لاكتشافه أنهم لا يعانون بسبب عيشهم على تلك الصورة...

«تبا لهذه المهنة»

«اللعنة على هذه الحياة ثلاثا»! يقولون...

«ثمة أيام عديدة أخرى لم تزل»... كانوا يعدون أيام معاناتهم... ثم وبعد استرجاع حريتهم بعد انتهاء «عطلتهم»، ينخرطون، يتجندون ثانية، بلا تردد... فإذا صادف أن استمروا إلى غاية الستة أشهر، منزعجين، تائهين وسط معمعة الحياة، يعودون، واضعين رقابهم المذعنة تحت النير... كان جاك يرثى لحالتهم تلك، ويشفق عليهم من عدم تألمهم من انحطاطهم واستعبادهم.

كان جاك قد حلم بالدور التمديني لفرنسا، كان يعتقد أنه سيجد في القصر رجالا واعين بمهمتهم، مهتمين بتحسين أوضاع من يتولون كلية إدارتهم... غير أنه وعلى العكس اكتشف بسرعة أن هدف النظام الساري المفعول هو الحفاظ على الوضع الراهن.

عدم إثارة أي تفكير عند الأهالي، عدم إيحائه بأي رغبة، بأي أمل، خاصة في مصير أفضل. ليس فقط أننا لا نحاول تقريبهم منا، ولكن بالعكس نبعدهم ونبقي عليهم في الظل، هناك في الدرك الأسفل... أن نبقى حراسا لهم، لا أن نصبح مثقفين لهم.

أو ليس طبيعيا؟ إذ إن هؤلاء القوم، في وسطهم الطبيعي بالثكنة، لا يبحثون عن النظر إليهم قليلا، وتقريب هذه الطبقة الدنيا، هذه الجمهرة المبنية للمجهول إلى نموذج إنساني،

حيـــث إنهم تعودوا أن يكونوا هناك لـــردع أي مظهر للتحرر... أي تجديـــد، فكيـــف لا يصفـــون حظهم بالحســـن، وهو يخدم مصالحهم وطموحاتهم على الســـواء فـــي حكم مدنيين، غرباء مرتين عن حياتهم، كمدنيين أولا، وكأهالي ثانيا، كيف لا يكونون أوفياء لمعيار الواجب العســـكري: دك الفردانيات، تحويلها إلى انقيـــاد مطلق، تعطيـــل أي تطور يمكنه بالتأكيـــد أن يؤدي إلى رضوخ أقل؟

واقتنع أخيرا مستنتجا: لا ليست مهنتهم هي حكم المدنيين... لا، لـــن يكونـــوا مربين أبدا... كل واحد منهـــم، بعد رحيله يترك الأشـــياء على الحالة التي وجدها عليها عنـــد مجيئه، بلا أدنى تحسين، بدفع الأشياء إلى الأفضل.

إنه سلطان الجمود، وهذه المناطق مفصولة عن العالم الآخر، عن فرنســـا الحية والمهتزة، وحتى عن الجزائر الحقيقية نفسها، بسور عظيم كسور الصين، يتعهدونه بالحماية ويعملون على رفعه أكثر فأكثر، ومحو إمكانيـــة النفوذ منه إلى الأبد، منطقة النفوذ العسكري المنغلقة على ما عداها.

واعتـــراه حزن كبير حين تذكر هذه المهمة التي كان من الممكن أن تكون خصبة وتبددت.

وما زاد من مرارة استيائه هو عجزه الشخصي في تحسين أي شيء من حالة الأشـــياء تلك، والتي كان من خلالها يرى بوضوح الخطر الاجتماعي والوطني.

وهو يشـــغل وضعا لا شأن له بالتسلسل الهرمي الذي يسيطر على كل شيء، وهو قاعدة كل شيء، وقد وضع إلى جانب المكتب

العربي ذي القدرة المطلقة، بلا أي سلطة، توجب عليه البقاء في دوره كمتفرج خامل.

فـــي البداية، كان يحاول أن يتكلم، فـــي ثرثرة، لكنه اصطدم بجبـل راسـخ، أمـام الاعتـقاد الصـادق والعنـيد لأولـئك النـاس، ما جعله يصمت أمام تهكمهم.

«أنت شـــاب، يا حكيم، وتجهل كل شــيء عن هذا البلد، وعن الأهالي... حين تعرفهم ستكون مثلنا»

نطق النقيب مالي كلماته تلك في تســامح متعجرف وتهكمي جمدت جاك.

منذ أن بــدأ يفهم اللغة العربية، ويحســـن التعبير بها قليلا، أصبح يحــب أن يتمدد فـــوق حصيرة، أمام المقاهـــي المغاربية، ويصغي إلى أولئك الناس، ويســـتمع إلى أغانيهم الحرة المنطلقة التي تشـــبه صحراءهم وتشبهه، كانت خطاباتهم بسيطة وحزينة يتعذر سبرها.

وشيئا فشـــيئا بدا السوفيون يتعودون على هذا الرومي، على هذا الضابط الذي لم يكن قاســـيا، أو متغطرسا، والذي يحدثهم وبســـمة صادقة جدا تعلو محياه، والذي يجلس بينهم، وبإشـــارة يوقفهم حين يريدون الوقوف لتحيته، عندما يقبل...

لم هو هكذا؟

لم يكونوا يدرون ولا يفهمون.

لكنهم وجدوا فيه العون على كل معاناتهم، مجاهدا في صبر، خطوة، خطوة، حذرهم، عدم ثقتهم، وجهلهم.

كان المرضى يتهافتون

على المكتـــب العربي، مطمئنين جراء شـــهرة طيبة الطبيب، وكانوا يبادرونه بالحديث خلال تنزهاته، يشوشـــون أحلامه على حصائر المقاهي...

وبـــدل أن يفرغ صبره، ســـجل ما في ذلـــك من تقدم ملحوظ وأثلج صـــدره. لم تعد صعوبة وظيفته تـــدرأه مطلقا، ولا نكران جميل الكثير.

كانت ساعات المساء، عند الغروب، هي ساعات راحتة اللذيذة، وحلمه الكئيب الهادئ.

يذهـــب إلى مقهى مغاربـــي، مقابل للمكتـــب العربي تقريبا، وهناك، مستلقيا كان يتأمل روعة السحر المتجدد يوميا، والمختلف دوما عن الساعة القرمزية.

أمامـــه، كانـــت بنايات البـــرج اللبنية تتلون فـــي البدء باللون الوردي، ثم شيئا فشيئا تصبح حمراء تماما، بلون الجمر، بشكل خارق وباهر...

كانت كل الخطوط المســـتقيمة أو المنحنية التي تستجنب على أرجوان السماء، كأنها تخرج من الذهب... خلف القباب الملتهبة للمدينة، الكثبان الكبيرة تتأجج... ثم يخفت الكل تدريجيا، يعود إلى لونه الوردي المتقزح... تنزلق ســـحابة باهتة ذات لون أصفر فضي على نتوءات البنايات، وعلى قمم الكثبان.

تعزيـــزات عميقة للون الأســـود، أروقة ضيقة بـــين الكثبان، تزحف ظلال الليل البنفســـجية، تتســـلق باتجـــاه القمم الملتهبة، تطفئ الحريق... ثم يغرق كل شـــيء في نور خفيف أزرق بحري عميق.

عندهـــا ومن على منارة ســـيدي ســـالم الكبـــرى، ومن على الشرفات الصغيرة للمساجد الأخرى المتلفة، يرتفع صوت المؤذن، الأبح والآبد قبلا، والجاذب.

ومع هذا الصوت الحالم يتوقف آخر ضجيج إنساني للمدينة، التي بلا بلاط، وبلا ســيارات، ومع كل مســـاء ينطلق هناك، في الشـــوارع الطللية للمصاعبة، بغرب الوادي، ناي بدوي هامســـا حزنا سرمديا، قطعيا.

كان جاك يحلم.

هو الآن يحب هذا البلد. تكفيه مهمته اليومية لســـد حاجته الملحـــة للحركة... وكل ذلك الحزن الكبيـــر، وكل ذلك الغموض، الذي لهذا البلد سحره، يكفيه لسد حاجته للحلم...

بقي جاك عفيفا، لنزوعه إلـــى جمالية أخلاقية ما، ولخجله أيضا، ولكن هنا، أكثر بكثير من هناك بفرنســـا، في خضم ذبول هـــذه الحيـــاة الرتيبة، وفي خضـــم عزلته الروحيـــة، كان يحس بالاضطراب العنيف للأحاسيس المتلهفة الشرهة.

لـــم يكن يتوقـــع هذا... أولا لأن الرغبة التـــي كانت تهيج فيه حدة كل الأحاسيس، كانت لذيذة مع كونها غير مشبعة. كان يبقي روحه منفتحة على كل الملذات، كل الارتعاشات.

لكـــن، عما قريب تتفلـــت أعصابه المتهيجة أمـــام هذا التوتر الشـــاذ والمرهق، أحس جاك بانزعاج مجهول الســـبب، واعترته ثورة أعصاب يتعذر وصفها، معكرة عليه صفو طمأنينته.

اغتاظ من نفســـه، قاوم ذلك التهيج الـــذي لم يخف طبيعته المادية جلها.

ثم وفي أحد المســـاءات، كان يتسكع في هدوء وبلا هدف في شوارع الأشاد الضيقة في شـــمال الوادى حيث كانت كل المنازل متهدمـــة وتبدو كأنهـــا غير آهلة. كان يحـــب ذاك المكان المنعزل المغمـــور بالصمت والهجران. مـــات الســـكان ولم يـــتركوا وريثا، أو رحلـــوا إلى الصحراء، إلى غدامس أو بر الصوف أو أبعد من ذلك...

خيم الليل وجاك لم يزل جالسا على صخرة ويحلم.

فجـــأة، أبصر في أحد تلـــك الأطلال نورا خافتـــا... وارتفع صـــوت ذو نغم، مصحوبا بصلصلة أســـورة... صوت امرأة كانت بهدوء تغني... وبدا له ذلك تعويذة سحرية، بسبب ما كان يطفح به إيقاع تلك الأغنية من حزن غامض غريب...

كان ريح ســـوف الســـرمدي يتمتم على الأنقاض، وفي هبوبه الفاتر اندست رائحة صمغ جاوة.

توقف الغناء وظهرت امرأة بمدخل منزل أقل قدما من المنازل الأخرى. طويلة القامة، نحيفة تحت ملحفتها السوداء، واستندت رشيقة على الجدار.

ورآها جاك، في الضوء الباهت الضارب للبنفســـجي في غير وضوح.

ذابلة قليلا، كما لو أنها مرهقة، كانت جميلة جدا.

رأتـــه فارتعدت. لكنها لـــم تدخل الدار... وتبـــادلا النظرات طويلا، وشعر جاك باضطراب لا يوصف يجتاح كيانه.

- أرواح!... قالت بصوت منخفض

وتقدم، من دون تردد.

أمسكته من يده وقادته في ظلمة الأطلال إلى النور الضئيل المعلق على محجن حديدي مرشوق على الجدار؛ مصباح صغير قديم الشكل كان يشتعل مترنحا: نوع من مجمرة حديدية صغيرة مربعة حيث تسبح في الزيت فتيلة غليظة. وفي الساحة الداخلية تنفتح غرفتان مازالتا صالحتين للسكن. في إحدى الزوايا، قدر يغلي على نار من جمر. قط كبير أسود، ملتف ككرة بصرود، يحلم في ضوء النار الأحمر، محدثا هرير نشوة منخفضا.

أجلست المرأة جاك في مدخل الغرفة وبقيت واقفة أمامه، صامتة. أخذ جاك يديها، كانت يداه ترتعشان، وأحس بدوار لذيذ. تتصاعد إلى حنجرته من صدره ضيق النفس حرارة سائغة، خانقة تقريبا... لم يحس مطلقا بسكر شهوة حسية حادة على هذه الدرجة من قبل وكان يتمنى أن يستمر هذا العذاب اللذيذ إلى الأبد.

لكنه ومن دون أن يدري بادرها متلعثما:

لكن... من أنت؟ وكيف أنت هنا؟

كانت تدعى مباركة. زوجها فلاح فقير من قبيلة العشاشين، توفي... وهي يتيمة، ليس لها إلا أخ يعمل سقاء بمدن التل الكبرى، ولم تكن تدري أين تذهب بالضبط. وبقيت وحيدة، وهذا يعني أن تستسلم للقناصين والفرسان المنخرطين في الجيش الفرنسي، كانت قد خرجت وشربت معهم الخمر. ولما لم يرغب أحد فيها كزوجة، لجأت إلى هنا، في منزل أخيها وعاشت مع عمتها العمياء. ولكسب قوت يومهما كانت تبيع جسدها. والآن تخشى من المكتب العربي... أن تخضع له، الطبيب، وترجته

ألا يدخلها على الدار العمومية، وأن يحفظ سرها. طمأنها جاك.

مباركة لا تتكلم كثيرا .كان سرد حكايتها بسيطا ومقتضبا... كانت تبدو متوترة.

تركت جاك وذهبت لسد المدخل بالألواح والأحجار: أحيانا يأتي الجنود ليلا...

ثم عادت وحملت المصباح الصغير إلى الغرفة الفارغة والعارية، على الطاولة، حصيرة وبعض الخرقات هي كل الأثاث. هنا وبغتة، السعادة، تقريبا تلك التي حلم بها... وبدت له الحياة بسيطة جدا ولذيذة جدا.

كانت مباركة تظل صامتة، في خضوع مطلق، ومع ذلك لم تنفتح. وكان ذلك الظل الغامض الذي تطوق به نفسها لاشعوريا، والذي لا يقلق جاك البتة، يفتنه. عندما كانت تحس بأنه يحلم، تلتزم الصمت، جالسة القرفصاء في الفناء الصغير أو متفرغة لأشغال المنزل. أو تغني، وكان صوتها الوئيد، العذب والأغن قليلا يشبه إيقاع حلمه.

كان يأتي إلى هنا كل مساء، هاربا من مطعم الضباط الممل، لقد أصبح مسكن هذه المومس العربية منزله. هل كانت وفية له؟ إنه لا يشك في ذلك أبدا.

لقد رضيت، منذ اليوم الأول، بنهج الحياة الجديد هذا، من دون أي اندهاش، ومن دون أي تردد. لا ينقصها أي شيء. والجنود السكارى، ما عادوا يجيئون مساء لشراء حبها، وحق ضربها وتعذيبها مقابل بعض الفلسات. لقد كانت مباركة سعيدة.

لاحظ جاك تطورا كبيرا في الحي، وفي المكتب العربي. لا حذر مكفهرا في النظرات، لا خوف ممزوجا بالضغينة الهمجية. واعتقد صادقا أنه كسب هؤلاء الرجال.

صحيح أن هنالك بعض التقصير لديهم تجاهه، لقد أصبحوا أقل اندفاعا في خدمته، أقل إذعانا، عاصين في غالب الأحيان لأوامره، معترفين بذلك بلا خوف، ذلك أنه لم يرد استعمال حق العقاب.

كان جاك مستبصرا إلى حد بعيد كي لا يدرك ذلك. ولكن أوليس ذلك أمرا طبيعيا؟ إذا كان هؤلاء الرجال خاضعين لرفقائه حد الرضوخ والتخلي التام عن كل إرادة إنسانية، فإنه الخوف الذي يجبرهم على ذلك. لقد كانوا يسارعون لخدمته أكثر من طاعته... ولكن يفعلون ذلك بالإكراه أيضا. بينما حياله، حتى خدمات الرزقي، على الرغم من عناده وتجمده فإنها تبدو كمبادرات ومجاملات. حتى في نضاله المستمر الذي تعين عليه اتباعه ضد إرادة الأهالي السلبية، في عدم اتباع وصفاته الطبية، وخاصة في عدم تحسين صحتهم، انتزع بعض الانتصارات. وحظي بصداقة الأكثر ذكاء بينهم، رجال الدين والمعلمين. باحترامه لإيمانهم، وبرغبته المتجلية في معرفتهم، وإدراك طريقة تفكيرهم ورؤيتهم للأشياء. لقد ظفر بودهم الذي فتح له قلوبا أخرى كثيرة، أكثر بساطة وأكثر غموضا.

لـمَ الحكم بالرعب؟ لم زرع الخوف الذي لا يعدو أن يكون إلا شكلا من أشكال البغض والرعب. لم التقيد المطلق بالطاعة العمياء، لم السلبية؟

كان جاك يطرح على نفسه هذه الأسئلة وبصدق، يثير كل ذلك النظام تمرده. لم يكن يريد تبنيه.

وفي أحد الأيام، دعا النقيب الطبيب إلى مكتبه.

أصغ إلي عزيزي الطبيب! إنك فتى يانع، وحديث عهد بالمهنة... وتحتاج إلى النصح... وإذن! يؤسفني جدا أن أقولها لك، ولكنك لم تزل بعد لا تعرف إلى أين تتجه هنا. إنك متسامح حد الإفراط مع الرجال... تفهم، كقائد حرب يجب علي السهر على حفظ النظام...

«لكن على الرغم من أنها أقل خطورة من وضعك إزاء الأهالي المدنيين، فإنك تلقائي وعشير فوق اللزوم معهم؛ ولا تملك الهم الدائم واللازم لترسيخ تفوقك، وسلطتك عليهم. صدقني، إنهم كلهم سواء، ويحتاجون إلى أن يقادوا بيد حديدية. ومعاملتك يمكن ان تكون لها في المستقبل عواقب وخيمة جدا... إنها يمكن أن تزرع البلبلة في عقولهم المتوحشة والمتعصبة. تصدق إعلان وفائهم، لصداقة زعمائهم الدينيين المزعومة... ولكن هذا ليس إلا مجرد احتيال ومراءاة... احترس... احترس! إني أقول لك هذا أولا من أجل مصلحتك. بعدها تعين علي التحسب لنتائج معاملتك... تفهم لي هنا كل المسؤولية»!

مجروحا في العمق، متبرما أكثر، اعترت جاك موجة من غضب وراح يشرح للنقيب - منذهلا في البدء، مغتما بعدها - أفكاره، وما نجم عن ملاحظاته.

قطب النقيب حاجبيه:

حكيم، بهذه الأفكار، يستحيل عليك أداء خدمتك هنا. دعهم من فضلك. كل هذا، كلام كتب الأدب، الأدب الخالص. هنا بمثل هذه الأفكار، لن نستطيع إلا أن نثير عصيانا مسلحا في أقرب وقت!

وأمام عدم الفهم المحزن ذاك، أحس جاك - وقد لف جوانحه حنق - باليأس.

احمل ما بدا لك من أفكار، يا حكيم، ولكن من فضلك، لا تضع مثل هذه المعتقدات حيز التطبيق هنا. لن أسمح بذلك، وفوق هذا، نحن قلة من الفرنسيين ومن المفروض بدلا من أن نحدث هذه الانشقاقات بيننا، يجب أن نتفاهم...

نعم، من أجل عمل مجد إنساني وفرنسي!

صاح جاك.

في غطرسة وتعال رد النقيب:

نحن هنا من أجل الحفاظ على العلم الفرنسي عاليا وراسخا. وأعتقد أننا نقوم بأمانة وشرف، بواجب الجنود والوطنيين هذا... ولا يمكن أن نقوم بذلك بشكل آخر، من دون أن نفشل في أداء واجبنا. إننا جنود، جنود فقط. على كل حال، أنا قد حذرتك...

غادر جاك النقيب، وقد تعكر سكونه البهيج، متبرما، منزعجا. وافترقا ببرودة.

ولكن جاك كان قوي السريرة، لم يغير شيئا في موقفه.

ويوما بعد يوم، كان يحس بتفاقم عدائية رفقائه، بقيت معاملاته معهم كيسة، لكنهم يتقيدون بالحد الأدنى الأساس. كان تضايق.

وانطوى جاك أكثر على نفسه، وغدا المنزل الطللي الصغير ملجأ له. هناك، يستريح، وسط ذلك الديكور الذي يحبه؛ هنا كان بعيدا عن كل الذين بالبرج الذين ينغصون عليه حياته. لم تكن مباركة تسأله عن بواعث حزنه، لكنها جالسة عند قدميه، كانت تدندن الأغاني الحزينة المفضلة لديه، أو تبتسم له...

هل تحبه؟ لم يستطع جاك أن يحدد ذلك بالضبط. لكنه لم يكن يتألم من ذلك الشك، لأنه أكثر ما يسحره وما يجذبه إليها هو ذلك الغموض الذي يلف كل كيانها، كانت بالنسبة إليه تجسيدا لبلدها وعرقها، بحزنها، وصمتها، وعدم قدرتها المطلقة على الفرح والضحك... ذلك أن مباركة لا تضحك أبدا.

في بسمتها، جاك يكتشف كنوزا من الحزن واللذة. لأنه يحبها هكذا غامضة، مستعصية الفهم، مجهولة، إذ إنها بهذا الشكل تتوافر له الإمكانية الساحرة ليحب من خلالها حلمه الشخصي...

في ظروف مختلفة، ومع تعود أفضل على البلد وعلى العرق العربي، ولو ابتدآ حبهما الغريب في بساطة وبلا تعقيد خاصة، لكان بإمكان جاك ربما أن ينظر إلى مباركة من زاوية أخرى...

شيئا فشيئا، استرجع جاك هدوءه وجرأته، ناسيا إنذار النقيب، والذي لم يعر تهديده أدنى اهتمام.

وبتلذذ راح يغرف من ينبوع الحياة.

ها خمسة أشهر مرت بسرعة منذ مجيئه، هو الآن يتكلم لغة الصحراء، يعرف هؤلاء الناس، الذين بدوا له في البدء غامضين، لم يكونوا في الحقيقة إلا أناسا مثل كل الناس، لا أفضل

ولا أسوأ، أناسا آخرين فقط. وبالتحديد هذا ما كان يحبه فيهم، أنهم كانوا مختلفين، لا يتصفون بتلك الفجاجة الثقيلة التي طالما مقتها في أوروبا.

لم يعد أفق الرمل الرمادي المطوق للمدينة الرمادية يشجي جاك: لقد اتحدت روحه مع اللامتناهي.

في نعومة النسيم المتعة، عند الفجر المشرق الجذلان، غادر جاك الأطلال. سرور عظيم يشرح صدره. كان يسير في فرح وحبور، في الشوارع التي بدأت تستيقظ، ثملا تملأه الحياة والشباب. وبدا له هذا البلد جديدا، كأن الغشاوة التي سربلت عينيه حتى الآن انقشعت. وتراءت له الوادى في محيط كثبانها الثابت، مدينة ذات بهاء وإشراق لا شك فيه البتة.

آه ما أروع البقاء دوما هنا، وعدم الرحيل أبدا! أن يؤدي مهمة رسالته الشاقة والمغرية في الوقت نفسه؛ ثم الانصراف في أوقات أخرى إلى عذوبة التأمل المرهفة، وأخيرا، وفي برودة الليل الاستسلام الكلي إلى سلطان ذلك الحب الذي لم يبحث عنه... لم يستطع جاك أن يقول رأيه في تلك المغامرة، في تلك المرأة، وفيما ما سينتج عن هذا الحلم الذي ارتسمت معالمه؛ لم يرد أن يحلل أحاسيسه، عندما أراد مصادفة أن يرتب في ذهنه انطباعاته الجديدة، تسارعت أفكاره، متلبدة، سريعة حد التفكك، وفضل أن يظل هكذا يحيا بحزنه، وهدوئه الكبير الذي ما عاد شيء يعكره...

وتراءى له أن الأيام والشهور بهذا البلد تمر على مهل وفي انسجام أكثر من أي مكان آخر، لقد سكنت عصبية مزاجه،

وعبقت روحه في صمت الأشـــياء، في هدوء، وبلا وجع. ولاحظ أنه أصبح شــيئا فشــيئا ميالا إلى قلة النشـــاط، ولكنه استسلم لذلك بتلذذ...

وعـــزم علـــى أن يطلب البقاء هنا دومـــا، إذ إنه لم يحس بأي رغبـــة في رؤية مدن وأناس من أوروبـــا، ولا مـــن الأرض النـــدية ولا من الاخضرار.

إنه يحب ســـوفه المضطرم والمهيمن، ويرغـــب في أن يقضي حياته على أرضه، على مهل، وفي هدوء بهي جليل.

توجس جاك خيفة عندما، في نصف شهر يناير تقريبا، طلب النقيـــب مرة أخرى أن يحادثه. كان قائد الملحقة هذه المرة، باردا وعنيفا.

لقـــد حذرتك عدة مرات، بأن ســـلوكك لا يتفق مع مقامك ووظيفتـــك. ليس فقط لم تقـــم أي اعتبار يذكـــر لنصائحي بخصوص علاقتك مع الرجال ومع زبائنك من الأهالي ولكنك ذهبت إلى إقامة علاقة مع امرأة من الأهـالي، سيئة السمعة. لقـــد اتخذتها خليلة لـــك، تعيش معهـــا، والآن تعلن علاقتك بهـــا إلى درجة أنك تخرج في المســـاءات للتنزه معها. تقر بأن ســـيرة كهذه مستحيلة. لذا أطلب منك أن تقطع هذه العلاقة التافهة والمســيئة لهيبتك، ولهيبتنـــا جميعا... أدعوك إلى أن تقطعها. هذا تصرف صبيانـــي، ويجب أن ينتهي على الفور. وإلا أصبحنا مســـخرة. تدرك بســـهولة، كم هو مستهجن أن أكلمك على هذا النحو... ولكن اعذر لي قســـوتي. لا يمكنني البتة الســـكوت على أمر كهذا... تدبـــر الأمر! ترتاد المقاهي

المغاربية إلى جانب المقملين الذين عودتهم على عدم تحيتك... لك صداقات مشبوهة مع رجالات الدين الإخوان... وهذه العلاقة، هذه العلاقة التافهة!

وانتفض جاك محتجا.

لم يعد سيدا حتى على حياته الشخصية، وأفعاله خارج الخدمة! ولمَاذا هناك في البرج، للضباط الآخرين زنجيات، هدايا من رؤساء أهالي... ولماذا آخرون يأتون هنا ببغايا أوروبيات شنيعات، خرجن من أوساط رديئة من الجزائر أو قسنطينة، واللائي يتربعن على مطعم الضباط، على الدائرة وحتى المكتب العربي، ويطالبن بأن تؤدى لهن التحية من أكثر الأهالي احتراما ويطيعهن حتى رجال الفرقة!

هذا لا يلوث سمعة وشرف الضباط بأية حال من الأحوال... الزنجيات لسن سوى خادمات، هذا كل شيء. ولا يجب أن تهول من الأمر. أما بالنسبة للأوروبيات، فالعلاقة مع إحداهن لا تستوجب اللوم، وطبيعي جدا أن يلزم الأهالي سواء المدنيين أو العسكريين بالاحترام المطلق للفرنسيات. يمكنك أن ترى بنفسك الفارق الموجود بين علاقات هؤلاء الضباط غير المؤذية وعلاقتك الشاذة والمسيئة لهيبتك ومركزك.

– علاقتي، بكل تأكيد، أكثر أخلاقية وإنسانية، حضرة النقيب.

على كل حال سأكف عن هذه المناقشة المتعبة، وبما أنك تريد إرغامي، وجب علي أن أخطرك، أنه في حالة ما إذا لم تغير كلية من نهج حياتك، وأسلوب تعاملك، إذا لم تتقيد بالأعراف التي

يمليها العقل وضرورات الاحتلال، فســأضطر مرغما أن أطلب من رؤسائي تنحيتك من منصبك.

كان جاك يعرف طبع النقيب الحاد والمتشــدد، لكن لم يخطر على باله هذا الاحتمال المخيف الآن. عاد إلى غرفته وبقي متسمرا مذعورا. هــل يغير حياته، ويصبح كالآخرين، يلغي شــخصيته، ومبادئه، يتحــول إلى آلة ميكانيكية؟ هل يعدل عن المهمة النبيلة التــي ابتدأها... ويخرج مباركة مــن حياته... باختصار أن يلغي ذاتــه... فلم إذن، بعد هذا البقاء في هذه المدينة، التي ســتغدو سجنا كبيرا.

وتراءت له ضرورة رحيله قاســية، مثل انتزاع جزء من روحه وجسده.

لا، لن يرضخ أبدا، سيظل ذاته...

واجتاح قلبه انزعاج موحش. لكن وبكل شجاعة لم يغير شيئا من نمط حياته.

ألم آخر كان بانتظــاره. فقد لاحظ أن أصدقاءه من رجالات الدين وكبار الأهالي يتحرجون في حضرته، ولا يسعدون بزياراته كما في الســابق، لا يحاولون إمســاكه، واستمالته. لقد أصبحوا فاترين وموقريــن. بالمقهى، وعلى الرغم مــن اعتراضه، يقفون لتحيته، وتتفرق الجماعات عند قدومه.

لقد تهشم ســحر حياته... ومن جديد أصبح غريبا... أيقظ شيء ما خفي وخبيث كل الشكوك وكل المخاوف.

وانهارت مهمته، غير المنتهيــة على نحو محزن، فجأة مرمية على الأرض بكل خشونة وقسوة...

أصبح المرضـــون تهكميين في وضوح، واتســـمت معاملتهم، أحيانا، بدلا من طيبة القلب المنشرح التي زرعها فيهم - بالوقاحة وشبه الازدراء.

الأصدقـــاء، رفقاء النزهـــات البعيدة، فرســـان الأهالي، المكتب العربي، كلهم تحصنوا بصمت ثقيل، وبالخضوع الفاتر للأيام الأولى.

بقيت مباركة

لكن يقين ذلك الحلم الذي ترعرع منتشـــيا منذ نصف ســـنة انتهى، انهار كل شيء، وحط احتضار سعادته، مكدرا عليه هدوء منزله الطللي الفاتن.

كان جاك يقضي الســـاعات المريرة في التفكير في تلك الأيام السعيدة، الملغاة إلى الأبد، وفي أسباب فشله.

كان يدرك أنـــه يكفي للنقيب ولمعاونيـــه أن يذكروا أمام كبار الأهالي كم أنهم يســـتنكرون سيرة الطبيب، وكم هو غير مرغوب في علاقاته الاجتماعية كي يكونوا مرغمين في رضوخهم المطلق على تركه...

وانفجر حزن شـــديد في قلب جـــاك. لقد عجل حدث طارئ بانهيـــار كل ما شـــيده من أجـــل أن يعيش فيه ويفكـــر به. كانت مباركـــة تذهب أحيانا لزيارة صديقة لها، متزوجة في المصاعبة، وفي استهتار وطيش الرعاع، أبقت على وجهها سافرا.

وفي إحدى المســـاءات وهي عائـــدة من ذلك الحي البعيد عن حيها، شُـــتمت مـــن طرف عمر بن ضيف الله مســـير الماخور... وردت مباركة بعنف وبلا خوف... وتدخلت نسوة الماخور، فاقتاد البوليس مباركة على السجن...

وبحجة الدعارة المخالفة للقانون، سجنت خمسة عشر يوما وقيدت بالسجل. احتج جاك بعنف، مغتما وهو يرى حلمه يمرغ بالطين.

آه! لعنك الله، هي عشيقتك؟ لم أكن أعلم بأنها هي... آه كم هذا مزعج! صاح النقيب. لكنك ترى أنني كنت على حق عندما حذرتك! يا لها من فضيحة... الآن، الكل يتحدث عن عشيقة الطبيب. ما العمل الآن؟

«لن أستطيع أن أردها إليك، ذلك أنه بعد هذه الحادثة لو عدت إليها، فستكون الفضيحة المجلجلة. آه! لو استمعت إلي»!

رد جاك وهو يرتعد من شدة الانفعال والغضب:

إذن، ستتركها بالسجن... إلى متى؟

تعلم أن الدعارة مقننة بشدة... هذه المرأة، لا يمكنها الخروج من السجن إلا للدخول إلى الدار العمومية.

لم تعد عاهرة وهي تعيش كزوجة معي.

لقد وجدناها بجانب الدار العمومية، سافرة الوجه، وهي تحدث الشغب الشائن... لقد قبض عليها... المعلومات التي بحوزتنا عنها تؤكد أنها لم تتوقف عن ممارسة مهنتها الساقطة... تعقل يا حكيم. هذه المرأة لا يمكن أن ترد إليك، لمصلحتك... أرى أنك رومانسي فوق اللزوم... ماذا يمكنني أن أفعل، كن عاقلا!

تعصب الطبيب، لكنه كان يحاول أن يحافظ على نبرة متأدبة، متلطفة...

ثم فجأة، وقد أتعبته تلك المناقشة السمجة، اتخذ جاك قرارا، الوحيد الذي بقي له.

إذن، حضرة النقيب سأطلب - واليوم، ببرقية - تحويلي لأسباب صحية...

لمعت في نظرات النقيب العصية على السبر، ومضة فرح.

أنت محق ربما. أدرك كم كان مقامك بالوادي متعبا وشاقا بأفكارك، التي لن أشك في أنها ستتغير قريبا... سنفتقدك بالتأكيد كثيرا، لكن الرحيل أفضل بالنسبة إليك.

نعم، أخيرا سأغادر وأنا على يقين تام، راسخ من الآن فصاعدا، بالفساد المطلق والخطر المتفاقم لنظام إدارتكم الذي سيمس القضية الفرنسية.

هز النقيب كتفيه:

لكل أفكاره، يا حكيم... في النهاية أنت حر.

نعم، أريد أن أكون حرا!

وأنتظر بفارغ الصبر الأمر بمغادرة هذا البلد الذي أحبه كثيرا. والذي كنت أتمنى البقاء فيه أبدا.

والغريب، أنه منذ أن عرف أنه سيرحل بدا لجاك أنه غادر فعلا سوف، وأن هذه المدينة وهذا البلد الذي يمتد هنا حوله، مثل أي مدينة أو بلد آخر، لكن بالتأكيد ليس سوفه المتألق المشرق الموحش... كان ينظر إلى تلك المشاهد الطبيعية بالإحساس الحالم والفاتر نفسه الذي نشعر به ونحن نشاهد ميناء مجهولا، حيث لم ولن نذهب أبدا، من على جسر باخرة، أثناء توقف قصير.

استطاع بواسطة هدية للشاوش أن يدخل للحظة إلى زنزانة مباركة... كانت له خيبة جديدة أخرى، فقد استقبلته بوابل من

اللــوم المرير، والدموع، والنحيب. إنه لا يحبها، وهو ضابط يقدر على كل شيء، تركها تسجن، وتقيد بالسجل... شتمته، مستغلقة، عدائية إلى الأبد هي الأخرى.

غادرها جاك.

ها انتهى كل شيء...

كان يرغــب في أن يرى مــرة أخرى على الأقل منزل الأطلال الصغير، حيث عاش السعادة الحقيقية.

لأنــه الآن وحيــد، ولأن كل ما اعتقد أنه متــين ودائم أصبح يشــبه الآن هذه الأطلال الغامضــة، الرمادية، عديمة الجدوى! كان جاك يتألم. مستســلما سيرحل، لأنه أحس بأنه لا يستطيع أن يبتدئ هنا ثانية حياة تافهة، مفرغة من أي معنى.

تحت ســماء الربيع الرحبة، الصافيــة والمضيئة، تحت ضنى الصيف الثقيل، تمتد كثبان سوف متموجة، لازوردية في الأمواج البعيدة... أحب جاك أن يغادر المدينة التي أحب، في الوقت الذي أحب، عند غروب الشمس. وللمرة الأخيرة كان جاك يشاهد كل ذلك الديكور الذي لن يره أبدا، وانقبض قلبه.

للمرة الأخيرة، كان مشــهد الفتنة الكبرى للمساءات المشرقة يمر أمام عينيه الطافحتين بالحنين...

عندمــا مــر على كثيب ســي عمــر الكبير، وتــوارى الوادي خلف الجدار الشــاهق للرمل القرمزي، أحس جاك باستســلام حزين يبعث الســكينة فــي قلبه... إنه هادئ الآن وهو يشــاهد الضيعات الصغيرة الحزينة، والزرائب الصغيرة المبنية من سعف النخيل، المنــازل ذات القباب، تتمدد بإفــراط الظلال الضاربة

للون البنفسجي لجوادي الفارسين وقد احمرا في ضوء المساء الأحمر.

وخطرت بباله فجأة فكرة أن الأمر بلا شك قدر على هذا النحو، أن تجهض كل مشاريعه هكذا، وأن تنتهي أحلامه هكذا، وأن يرحل منفيا، مطرودا تقريبا من كل أماكن الأرض التي يذهب إليها كي يعيش ويحب.

فعلا، لم يكن يشبه الآخرين، ولم يرد أن يطأطئ رأسه تحت نير رداءتهم المستبدة.

تاعليث

كأنهـــا تعيش حلما جميـــلا، تذكر تلك الأيام الســـعيدة، تلك التي قضتها بين أحضان ســـفوح التلال النشـــوى التي ســـربلتها الشمس رداء ذهبيا، هناك في أسفل تلك الجبال الشامخة التي تشـــقها المضايق الســـحيقة والمنفتحة على دفء الأفق الأزرق... كانـــت هناك غابات الصنوبر والبلوط العـــذراء، صامتة متوعدة وشـــجيرات كثيفة صغيرة تتصاعد منها أنفاس حارة في صفاء الخريـــف وثمالة الربيع العنيفة... كانت هناك شـــجيرات الرند الخضـــراء، ونبات الغار الـــوردي ذو النجمـــات يحضن ضفاف الأودية الهادئة وعبر بســـاتين التين والزيتون... يرسل السرخس الشـــفيف ضبابه الخفيف على الصخـــور الحمراء المبقورة قرب شـــلالات الجوهـــر، فتتبعث المجاري جذلانة تحت الشـــمس، أو تصرخ مدوية في ليالي الشتاء المخيفة.

راعية غنم كانت.. طليقة نشـــوى.. كم مرحت هناك وســـط حمام من الضياء المنعش السرمدي، أطرافها القوية عارية تقريبا تحت الشمس.

ها هي الآن تذكر – ورعشـــة تعتريها – حفل الزفاف البهيج، حين زفوها للرزقي أو السعيد ذاك الصياد الوسيم الذي أحبت.

وبدا لها، وهي تسترجع تلك الذكريات، أن تلك الأيام الخوالي قـــد انقضت بلا همـــوم وبلا أحزان، وكل ما فيها تعطر ببلســـم عذوبتها.

وها قد حطت ساعات الألم الدكينة رحالها.

فجأة، تهشم كل شيء.. دُكَّ دكا.. تبدد، كما تبدد الريح زوبعة عابرة على الدرب الظليل. في إحدى الليالي أودت طلقة بندقية بحيـاة الرزقي.. أطلقها لصوص خيـول... كان حدادا فظيعا.. حداد الروح والـدم.. حداد اقتلاع.. وجنون تمزيق الفسـاتين، وندب الخدود الدامية وشد الشعر المبعثر.

صرخت كما تصرخ إناث البراري المتوحشة ولذعة الرصاص تخترق روحها...

وها بعدها أطفأ والدها شمعته للأبد.. ذات شتاء بارد مفعم بالبؤس والفقر والخوف، أثناء العاصفة التي ألقت أثقال ثلوجها على سقف القوربي[1] الكوخ الآيل للسقوط... وبعد شهور تزوجت زوينـة أم تاعليث من تاجر انتقل بهما راحلا إلى مدينة الجزائر العاصمة.

وها هـي تاعليث الآن سـجينة هناك، داخـل ذاك الديكور العربي المغلق كأنه سـجن عالية أسـواره المطليـة باللون الأزرق الباهت، مسـيج بصف من أعمدة كأنها أعمدة دير، وسـط قهر مدينة الجزائر التركية والعربيـة الباعث على القلق، والتي كلها ظلمة وريبة قاتلة... كانت تختنق هناك في ظل ذاك الظل المؤذي بين نساء يتكلمن لغة أخرى يسمينها تهكما القبائلية.

هنـاك، ابتدأت قصة أخرى مع عذاب جديد آخر: فزوج الأم يريد أن يزوجها ثانية، يهبها لشـريكه الذميم الطاعن في السن. وثار جسد المرأة العاشقة على هذه الزيجة، رفضتها بكل عنفوان.

أنا أحب الرزقي

---

(١) القوربي Le gourbi: هكذا بالفرنسـية في النـص الأصلي، وهي كلمة باللهجة الجزائرية تعني الكوخ.

كانت تجيب أمها حين تحدثها عن شبابها وجمالها لتحثها على القبول.

تلك كانت الحقيقة. لقد أحبت الزوج الحبيب المتوفى، ومازالت جوارحها تحفظ ذكراه اللذيذة المخضبة بالألم العذب.

أمام إلحاح أمها المثير للغضب وخشونة زوج أمها الذي كان يضربها بقسوة، أحست تاعليث بأن مقاومتها اليائسة بلا جدوى. ثم أليست تحب الميت؟ ألم تكن مخلصة له؟ ألا تحس بأنها وحيدة وغير قادرة على الحب ثانية؟

وجهها الأسمر، ذو العينين الواسعتين اللتين تشبهان اللمسة الحزينة، والجبين الموشوم والشفاه العذبة، تصلب وانكمش، تماهى إلى نحول مرضي. ولمع بريق غريب في نظرتها الداكنة.

ذات يوم قالت لزوج أمها:

إذا كان هذا قدري، فأنا طوع أمرك...

وظلت تنتظر في صمت أكبر من ذي قبل وشحوبها يتفاقم أكثر.

وكانت الليلة الأخيرة قبل موعد الزفاف، وبعد أن هدأ الليل وخفت ضجيج صبايا البيت، كانت تاعليث ووالدتها وحدهما.

أماه! همست تاعليث وبسمة غريبة تعلو شفتيها، أرغب في أن تلبسيني وأن تزينيني كما سأكون غدا، كيما أرى هل مازلت أبدو جميلة وأنا التي ذبلت عيناها جراء البكاء.

سعيدة بما اعتقدت أنه تجدد فرح صبياني، راحت زوينة مسرعة تلبس تاعليث أقمصة الشاش المفضض و«قندورات»[1]

---

(١) قندورات gandouras: هكذا باللاتينية في النص الأصلي كلمة جزائرية وتعني فستان البيت أو فستان العرس أو جبة وغالبا ما تكون مطرزة وهي الجلابية أيضا.

فساتين الحرير فاتحة الألوان، والمناديل اللامعة... وتابعت تثقلها بكل حليها القبائلية: على رأسها ذي الشعر الطويل المصبوغ، وتثبت تاج الفضة المزين بالمرجان، وتحيط جيدها العاري النقي بعقد من زجاج ومن قطع ذهبية ومرجانية على الطوق المرصع. ثم شدت خصرها المشوق بحزام فضي وقلدت معصميها المدورين بأساور، وكعبيها بخلاخل رنانة.

وغمر طوق من العجين المجفف الفواح جسد تاعليث بأريج دافئ، وجلست زوينة القرفصاء تلفها بنظرات حانية وهي تكرر:

ما أجملك يا عين الغزال!

تناولت تاعليث مرآتها وظلت تنظر إلى نفسها ونشوة غامرة تعتريها طويلا طويلا إلى درجة أن زوينة غفت عيناها.

وإذ ذاك تجردت تاعليث من خلاخيلها الرنانة وخرجت إلى البهو بيضاء.. ناصعة البياض تحت الضياء المائل للقمر والمنزلق على البلاط تاركا الأعمدة في الظل الأزرق.

وهمست تاعليث كما لو أنها في حلم:

لا بد أن الوقت تأخر!

محمومة، مرتعشة، وضعت جبينها الملتهب على المرمر البارد لأحد الأعمدة...

واعتراها ألم لا يطاق، وهزت جسدها دفقة من بكاء أخرس من دون أي عَبرة. قرقعت حلي المرجان التي تزين تاجها على الحجر قرقعة خفيفة... ارتعدت تاعليث واستوت من جديد شاحبة.. في غاية الشحوب.

محمومة، مرتعشـــة، وضعت جبينها الملتهب على المرمر البارد لأحد الأعمدة...

واعتراها ألم لا يطاق، وهزت جســـدها دفقة من بكاء أخرس مـــن دون أي عَبرة. جلجلت حلي المرجـــان التي تزين تاجها على الحجــــر جلجلة خفيفـــة... ارتعدت تاعليث واســـتوت من جديد شاحبة.. في غاية الشحوب.

كانت البئر العربية في زاوية تغفو هوَّةً ضيقة بلا قاع. انحنت لحظة على الســـر الدكين للثقب... ثم اســـتقامت وصعدت على حافة البئر القديمة. في لحظة بدت في ذلك الوضع مســـتقيمة جدا تحت ضوء القمر، كمعبودة فضية. أغمضت عينيها، همست بكلمات تقية من صميم الإســـلام، حركت شـــفتيها وتهاوت في الظل السحيق، تتبعها هفهفة الحرير وجلجلة الحلي.

ارتطام أخرس، بقبقة بعيدة: يلعق الماء الأسود المارد الجدران الغروية... ثم لا شيء.. الصمت الرهيب.

تاعليث المزدانة عروسا اختفت.

اتهمها الجميع بالفرار إلى مواخير القصبة لتبيع الهوى. لكن زوينة الحائرة، الشائخة أدركت الحقيقة، وتوسلت حتى ينزلوها بحبل إلى قاع البئر. وأمام إلحاحها الذي بدا كأنه الجنون، أمرت السلطات بغلق البئر. وهكذا اقتلعت زوينة أظفارها ولحم يديها على الصخر وهي تصرخ لأيام الاسم العزيز:

تاعليث!

بحثـــوا عنها في الخـــارج بلا جدوى. فقرروا فتـــح البئر من جديد، تدلى رجل على القعر ليجد تاعليث تطفو فوق الماء...

أخذوا الجثة.. وضعوها على البلاط الأبيض فأنارت شمس الأصيل السحرية ومضات وردية الجواهر التي لم تزل تطوق ذاك الجسد المنتفخ المخضر وكل تلك القذارة الكريهة التي لم تكن إلا تاعليث.

اليـد

هي ذكرى تعود إلى أربع سنوات خلت عن مدينة سوف القاسية والمؤتلقة، عن تلك الأرض المتعصبة والرائعة التي عشقت، والتي كادت تأخذنـي إلـى الأبد، فـي إحدى مقابرهـا المفتوحة على الفضاء الرحيب والخالية من كل حزن وأسى.

كان الوقت ليلا، بشـمال مدينة الوادي علـى طريق البهيمة كنت وأحد فرسـان الأهالي المجندين بالجيش الفرنسي عائدين من سـباق للخيل إلى إحدى الزوايا البعيدة، والصمت يخيم على كل المكان.

آه مـن الليالي القمرية تلك على صحـراء الرمال، ليال وهل تضاهيها ليال روعة وسحرا وغموضا؟

فوضى الكثبـان الرملية، والأضرحة والصـورة الظلية لمنارة سـيدي سـالم البيضاء المطلة على المدينة، كل شـيء يتلاشى، ينصهر يتبدد ويأخذ مظاهر شفافة وخيالية.

الصحراء حيث تنساب الأضواء الوردية، والأضواء الخضراء الشـاحبة والأضواء الزرقاء، وانعكاسات الأضواء الفضية، هي ذي الصحراء تسـكنها الأشـباح، لا كخطـوط كِفافية واضحة ودقيقة، ولا أشكال جلية في سطوع وتلألؤ الرمال الغامر.

كانـت الكثبان الرملية البعيدة تبدو بخارا قد تجمع في الأفق والقريبة تتلاشى في السطوع اللامتناهي المنسكب من السماء.

مررنـا في درب ضيق على وهـدة رمادية صغيرة وقد زرعت حجارة مستقيمة: مقبرة سيدي عبد الله.

كان الجـــوادان يتقدمـــان دون إحداث أي جلبـــة فوق الرمال الجافة والمتحركة. فجأة لمحنا شــكلا أسود ينزل المنحدر المقابل للوهدة متجها نحو المقبرة.

كان الشـــكل امرأة وقد تســـربلت بلحاف السوفيات[1] الأسود المصنوع من الجوخ الإغريقي.

مندهشين، قلقين توقفنا ورحنا نتبع خطواتها بأعيننا.

أملودان استقاما على تلة يؤشران لقبر حديث جدا.

جلست المرأة على ركبتيها بعد أن اقتلعت النخلتين الصغيرتين وقـــد بدا وجهها الآن في ضوء القمر منكمشـــا تعلوه تجاعيد الســـنين. وراحت تحفر بسرعة بيديها وســـط الرمل كأنها أحد حيوانات الصحراء الحفارة.

كانت تؤدي مهمتها تلك بهمجية غريبة.

وانفتح الثقب الأسود سريعا على نومته وتعفنه المجهول الذي يخفيه.

وأخيرا انحنت المرأة على القبر الفاغر فمه. وحين استقامت، كانت تحمل إحدى يدي الميت وقد قطعت على مســـتوى المعصم، يد مسكينة جاسئة متيبسة وشاحبة.

وعلـــى عجـــل، ردمـــت العجوز الحفـــرة وأعـــادت الأملودين الأخضريـــن، ثم أخفت اليـــد المقطوعة تحـــت لحافها واتخذت طريق المدينة قافلة.

مذعورا لاهثا أخذ الفارس بندقيته وجهزها للرمي.

أوقفته قائلة:

لماذا؟ أيهمنا هذا الأمر؟ الله وكيلها!

---

(١) السوفيات: نسبة إلى وادي سوف إحدى مدن الصحراء الجزائرية.

آه! إلهي، إلهي. راح يكررها الفارس مصدوما.

دعيني أقتل عدوة الله وعدوة عباده!

خبرني قبل ذلك ما الذي يمكنها أن تفعله بهذه اليد ؟

آه، لا تعلمين! إنها ساحرة ملعونة. بيد الميت ستعجن خبزا. ثم تطعمه بعض التعساء. ومن تناول طعاما أعد بيد ميت مأخوذة ليلة جمعة يكون فيها القمر بدرا، يتجفف قلبه ويموت موتا بطيئا. سيغدو باردا غير مكترث بالحياة وسيستولي على روحه ضيق رهيب .ثم يذبل ويموت. فليحفظنا الله من هذي الشرور!

وفي شعاع الليل الهادئ اختفت العجوز، إلى مهمتها الظلامية[1].

وفي صمت غامر اتخذنا طريقنا باتجاه مدينة الألف قبة: قباب صغيرة ودائرية يخيل للرائي من أفق لآخر أنها امتداد لظهر العِرْق العملاق، مدينة عملاقة من مدن ألف ليلة وليلة الشفيفة وعفاريتها وسحرتها.

---

(١) هناك نسخة أخرى مخطوطة عن هذه القصة معنونة بالغولة La Goule.

المترجم في سطور

حسن دواس

● من مواليد ١٩٦٦ - الجزائر.
● خريج معهد اللغات الحية الأجنبية، قسم اللغة الإنجليزية بجامعة قسنطينة، حاصل على شهادة الماجستير في الأدب المقارن، شعبة أدب الرحلة، جامعة قسنطينة، ويحضر حاليا دكتوراه في النقد.
● عمل بالتعليم الثانوي، أستاذا للغة الإنجليزية، ثم رئيسا لمكتب دعم الإبداع والفنون بمديرية الثقافة لولاية سكيكدة، ثم مديرا للمركز الثقافي جمال رمضان، سكيكدة.
● عضو في العديد من الجمعيات والروابط الثقافية، وترأس المكتب الوطني للترجمة برابطة إبداع الثقافة، سكيكدة، من العام ١٩٩٥، ورئيس المكتب الولائي لرابطة إبداع الثقافة الوطنية.
● حاصل على العديد من الجوائز.
● له العديد من الإصدارات في أكثر من مجال مثل: الشعر، أدب الطفل، الترجمة والدراسات.
● شارك في العديد من الملتقيات والندوات الأدبية والفكرية الوطنية والعربية.

المراجع في سطور

د. ليلى عثمان فضل

● من مواليد العام ١٩٥٠.
● أنهت دراستها الجامعية في العام ١٩٧٢، حاصلة بذلك على ليسانس في آداب اللغة الفرنسية بجامعة عين شمس - كلية البنات - جمهورية مصر العربية.
● حازت درجة الدكتوراه في العام ١٩٨٥، وكان موضوع أطروحتها «التجربة الإنسانية في الرواية الفرنسية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. مرحلتا الطفولة والمراهقة».
● عملت أستاذا للغة الفرنسية بجامعة الكويت.
● راجعت عدة أعمال لسلسلة «إبداعات عالمية» منها: «مختارات شعرية من السنغال»، «طام طام زنجي» تأليف ليوبولد سيدار سنغور، ورواية «عشيق الصين الشمالية» تأليف مارغريت دوراس.

إصدارات قادمة

المغامرة الغامضة

(رواية)

تأليف: شيخ حامد كان

ترجمة: محمد سعيد باه

مراجعة: د. وطفى هاشم حمادي

ترجمت عن الفرنسية

ما صدر من هذه السلسلة

العدد	العنوان	المؤلف
318	نون والقلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1)	تأليف: سليمان جيغو ديوب
	الطفل الملك	
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروليان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: بيجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز



ياسمينة
(وقصص أخرى)

نقدم للقارئ الكريم في هذا العدد مجموعة قصصية، ذات طابع عربي إسلامي أفريقي لمؤلفتها الروائية الرحالة الفرنسية إيزابيل إبرهاردت (ولدت العام ١٨٧٧ في جنيف، وتوفيت العام ١٩٠٤ بالجزائر).

تتمتع هذه المجموعة القصصية المميزة بجاذبيتها وتأثيرها الساحر في كل من يقترب من قراءتها، نظرا إلى كثرة ترحال الكاتبة إيزابيل بين فرنسا وروسيا والجزائر وكيفية إسلامها وزواجها من عربي مسلم على الرغم من ديانة أبويها النصرانيين.

وهذه المجموعة القصصية التي تضم القصص التالية: «الغريمة»، «نحيب اللوز»، «ياسمينة»، «النقيب»، «تاعليث»، «اليد» تتباين مواضيعها وتختلف، حيث تحاول من خلالها إيزابيل رصد الحياة وعادات المجتمع الجزائري وأحلامه وآماله ومعاناته. كما أنه من الملاحظ أن قصصها غالبا ما تبنى على ثنائيات متناقضة متعددة، كالتقاء حضارتين - الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية - المستعمِر والمستعمَر، العامل ورب العمل، رجل الدين والمريدون، البؤس والسعادة، وغيرها من الثنائيات.

ونأخذ على سبيل المثال قصة «ياسمينة»، فهي تتناول قصة حب تعالج من خلالها التقاء الغرب في شخص الضابط جاك بالشرق الممثل في شخصية ياسمينة، وفي الوقت نفسه هو التقاء واختلاف المستعمِر والمستعمَر في نمط الحياة والتفكير، وهو الصراع القائم بينهما.

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٧٧
ردمك: ٩-٣٦٩-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨